نفس حائرة

مجموعة قصصية

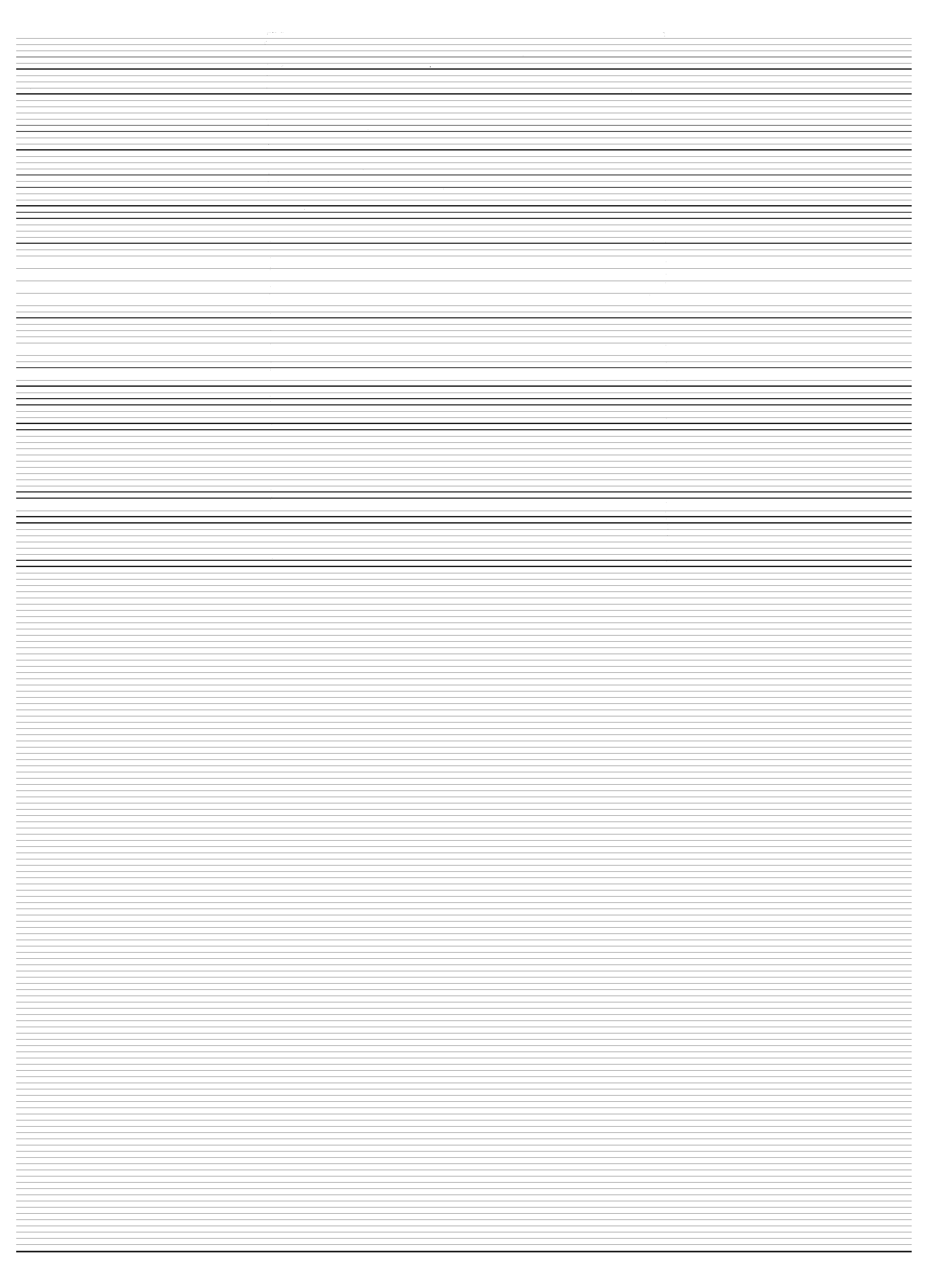
حسنى سيد لبيب

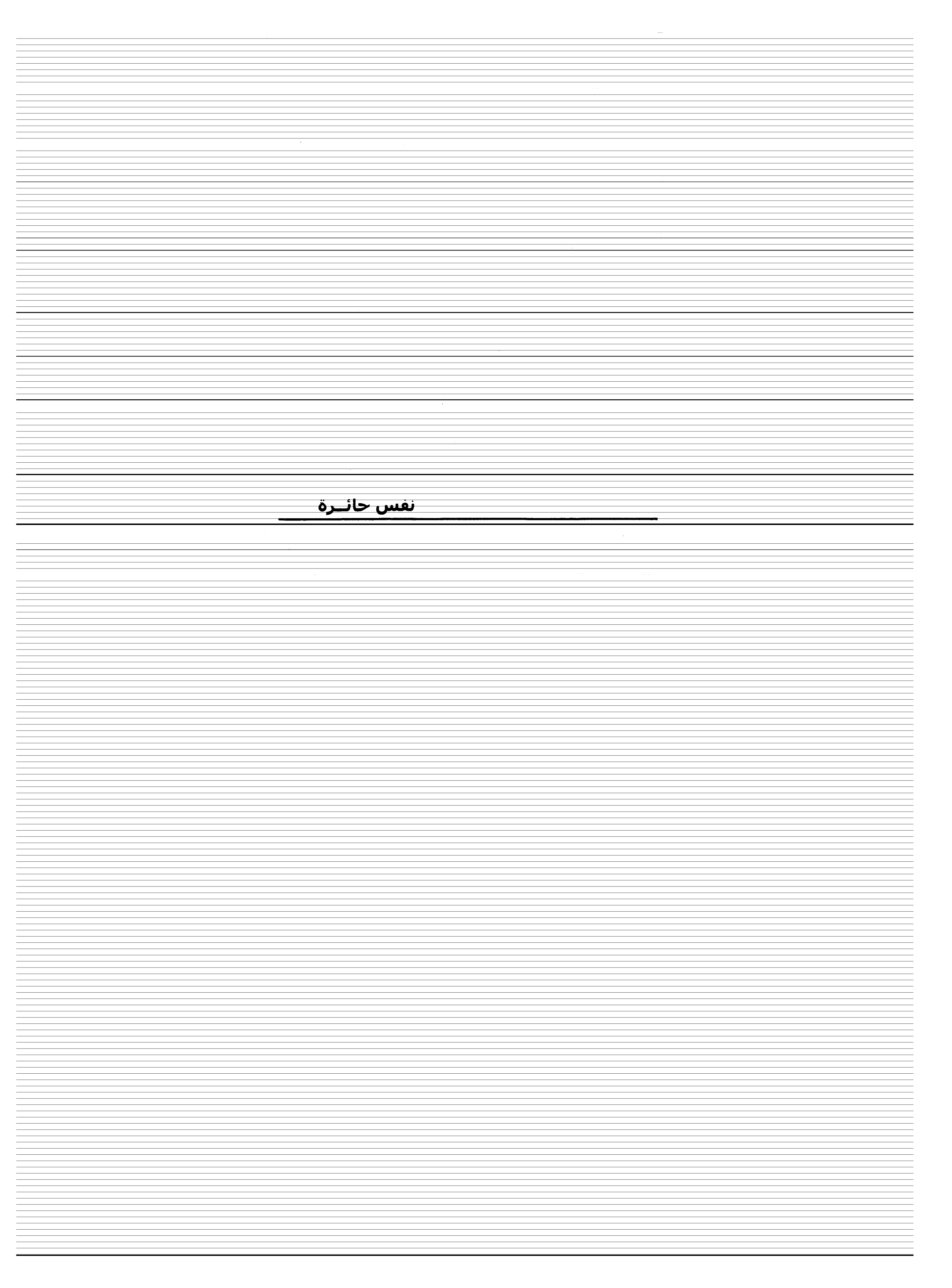
الطبعة الأولى

الناشـــــر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

ت : ٥٣٥٤٤٣٨ ـ الإسكندرية





نفس حائــرة

حسنى سيد لبيب
نفس حائرة
كمبيوتر : دار الوفاء (علا علاء)
الطباعة : دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشــــر
ش ملك حفنى ، قبلى السكة الحديد
بجوار مساكن دربالة أمام بلوك ٣
الرقم البريدى : ٢١٤١١ فيكتوريا ــ اسكندرية
رقم الإيــــداع : ٧١٨٩ / ١٩٩٩
الترقيم الدولى : 6 - 70 - 5904 - 977

هذه المجموعة

هذه هى المجموعة القصصية الخامسة لصديقى الأديب حسنى سيد لبيب. صدر له من قبل : حياة جديدة، أحدثكم عن نفسى، طائرات ورقية، كلمات حب فى الدفتر، كنا صدر له رواية " دموع إيزيس"، وترجمتان لمجموعتى قصص هما "ابن عمى ديكران" و "وسبعون ألف آشورى، فضلاً عن دراستين هما باقة حب (بالاشتراك مع آخرين) والخفاجى شاعراً..

ملاحظتى على حسنى لبيب – على المستوى الشخصى – لأن الهدوء الذى يسم كلماته وتصرفاته، يذكرنى بالدعابة التى خاطبت بها أم كلثوم أستاذنا توفيق الحكيم : من الذى يكتب لك أعمالك؟..

كانت تستفز هدوء الحكيم وصمته، مقابلاً لإعجابها المؤكد بكتاباته..

كان الهدوء الظاهرى للحكيم ــ كما تعلــم ــ ينطــوى على نفس متألمة، تحيا الفن، ومشكلات الذات والآخرين والعالم، وتمــور بإبداعات تبين عن تفردها وتميزها حين يجــرى بــها القلم على الورق..

حسنى سيد لبيب أميل إلى الصمت، وإلى عدم المشاركة فى المناقشات. لا يسأل، وإن سئل فهو يجيب باقتضاب، وفـــى حدود المعلومة. وإذا حدث، فبصوت هامس، وبكلمات تؤطرها مقولة "ما قل ودل"..

وفى المقابل، فإن إبداعاته تعنى بالتفصيلات الجســمية والنفسية للشخصيات، وتطيل تأمل الملامح التى ربما لا تستلفت انتبــاه الأعين غير الواعية. القارئ لأعمال حســـنى لبيــب، يسهل عليه تبين أن الفن عنده ليس مجرد تزجية فــراغ، لكنــه تعبير عن هموم اجتماعية.. وفنية أيضا!

إن العمل الأدبى إعادة تشكيل للحياة من خلال الكلمات، والفنان ليس جزيرة منعزلة. إنه يشارك ــ بصرف النظر عن مشيئته! ــ فى تيار الحياة من حوله، وكل ما يحدث فى الكــون يخصــه. الوحدة اســتراحة تنتــهى بالاتصــال بــالآخرين. والمقولة القديمة بأن الإنسان اجتماعى بطبعه هى مقولة صحيحة تماماً، وأذكر وصف بيكاسو للفنان بأنه " كائن سياســـى دائــم

اليقظة أمام أحداث العالم، يشكل بها جميعاً، سواء كانت أحداثـــاً
تمزق القلب، أو أحداثاً رقيقة، أو مثيرة"..

يثير ضيقي، وربما سخطي، تدنـــي الوعـــي السياســـي
والفلسفي عند المبدع، بالقياس إلى موهبته الإبداعية..

إن كل الموضوعات تقليدية، أو سبق طرحها. والجديد
الذي على الفنان أن يقدمه هو إضاءة تلك الموضوعات التقليدية،
أو التي سبق طرحها، بتجربته الخاصة، وبرؤيتـــه المتمـــيزة،
وبتفهمه لطبيعة اللحظة التي يحياها مجتمعه الأصغر، متمثلاً في
أسرته والمحيطين به، ومجتمع الوطـــن الـــذي ينتمـــي إليـــه،
والمجتمع الأكبر، وهو العالم كله، وما يتصل بذلك من تجـــارب
وأحداث وموروثاً، تشكل – في مجموعها خصوصية معطيـــات
الفنان..

وبداية، فلعل الراوي في قصته "معاناة" يعبر عـــن ذات
الفنان ومعاناته : " يكفيني أن أعبر عن نفسي، وأن أكون ١مير
الإنسان الكامن في ذواتنا، إنساننا ضائع في زحـــام الرغبـــات
والنوازع. ماذا لو خرست كـــل الأصـــوات، وعـــلا صـــوت
الأديب؟"..

أنت تستطيع التعرف – في قصص هذه المجموعـــة –
إلى المجتمع المصري، قضاياه ومشكلاته ومعتقداتـــه وعاداتـــه

وتقاليده وسلوكيات أفراده اليومية، من خـــلال قصــص هــذه المجموعة. ثمة علاقات طارئة ومستمرة، وثمة حــب وزواج وطلاق، وثمة مشكلات اجتماعية واقتصادية ونفسية تمثل ــ فى مجموعها بانوراما الحياة الآتية..

الظروف المادية القاسية بعـــد واضــح فــى قصــص المجموعة. يتنازل المرء ــ لكى تتواصل حياة أسرته الصغيرة ــ عن بعض الأشياء الثمينة، ولكنه يحرص على القيـــم، فــلا شبهة، ولا مجرد تفكير، فى التنازل : نتعرف إلى مـــن يبيــع مصوغات زوجته، لمجاوزة الوضع المأزوم، متمنياً أن تسـعفه الظروف، فيستعيد ما باعه فى أقرب وقت، وتطالعنا من تربــى الدجاج، وتبيعه مع البيض والجبن لأهل قريتها، كـــى ترعــى أخوتها وأباها الكفيف.. وأمثلة أخرى كثيرة تبين عن " تحــايل" الإنسان المصرى على الظروف الصعبة..

والسفر إلى خارج مصـــر بعـد آخــر فــى قصــص المجموعة، لا تقتصر معاناة المواطن المصرى على الإحســاس بالغــربة، وإنما يتلقفه الصراع العربى/ العربى فـــى دوامـــة، فيدفع ثمن جرائم لم يرتكبها، ولا صلة له بها، ولكـــن الدلالـــة الإجتماعية، والإنسانية بعامة، هى المعنى الذى يخــاطبك فــى القصة..

المشكلات اجتماعية، فلا يتطرق الكاتب إلى سياسة، ولا يقترب منها. وعندما يجتذبه الحديث عن الوطن والوطنية، فإنه، فإن كلماته تتسم بالعمومية، بالتجريد والمطلق : " وتسابقن يحاورنه في مظاهر حب الوطن، أن تزرع ياسمينة، أن تزرع البسمة فى قلب شقى، أن تعتز بوطنك، أن تنظف المكان الذى تعيش فيه، أن ترتبه، أن تقرأ كتاباً، أن تتعاون، أن تشارك الناس آلامهم وأفراحهم إلخ"..

أما قصة "رأس الأفعى" التى تلامس قضية سياسية عالمية، ملحة، فهى تنطلق من مشاعر إنسانية خالصة، تنأى عن توقعات السياسة واحتمالاتها..

وإذا كان الفنان يحتفل بالموروث، من معتقدات وعادات وتقاليد، وهو ما يبين ـــ على سبيل المثال ـــ فى الأمثال الشعبية كالقول ـــ الغراب يزن على خراب عشه... اللى يحب ما يكرهش.. يا بخت مين زار وخفف..للنهار عيون.. إلخ.. فإن غالبية شخصيات المجموعة تنتمى إلى أصول ريفية، وتتوزع فى العائلة المصرية، وفى الأسرة المصرية : الجدين، الأبوين، الأبناء، الحفدة، وما يتفرع من ذلك كالأعمام والأخوال والأقارب عموماً. وتعبير "حس البيت" لا يخلو من دلالة..

يشدد فورد ما دوكس على أن الأدب الرفيــــع لابــد أن يتمتع بمغزى أخلاقى. أنت تستطيع أن تدفع بقصص حســـنى سيد لبيب إلى أفراد طارتك دون أن تخشـــى علـــى المشــاعر الرقيقة من لفظة نابية، أو تعبير جارح، أو وصف يثير الغرائز. العواطف سامية، تنبو عن الحس، والعلاقات تتحدد فى الحـــب العفيف والخطبة والزواج السعيد. قد تحدث مشكــلات، لكنـــها تنتهى ــ فى الأغلب ــ بالنهاية السعيدة، ربما لأن ذلـــك كـــان كذلك بالفعل، أو لأنه ما يأمله الفنان : " تسمرت عنـــد البـــاب، منتظراً فتحه، وأنا واقف على أحر من الجمر. وعندمـــا فتـــح الباب، أذهلتنى المفاجأة، إذ ألفيت سلوى تهيأت للخـــروج وقـــد حزمت أمتعتها فى الحقيبة. سألتها :

ــ إلى أين؟

ــ إلى بيتى..

وكنت أتوقع الجـــواب. احتضنتـــها، غـــامراً وجهـــها بالقبلات. ولم أعطل وقتاً أحيى فيه أبويـــها، مكتفيـــاً بتلوحيـــة بيدى، مبتسماً ابتسامة عريضة، وقد أحطـــت كتفـــها بذراعـــى اليسرى، حاملاً فى اليمنى حقيبتها الكبيرة، وفى الطريـــق إلـــى البيت، حـــرصت أن تغمرنى بفرحة ثانية، فالطبيب قد بشرهـــا ــ بالأمس ــ أنها حامل".

حتى عندما فوجئ الأديب ، الراوى بأن بـــائع الفاكهـــة صنع من كتبه "قراطيس" للفاكهة، فعانى إحباطا، مـــا لبـث أن تعرف إلى المفاجأة التالية، السعيدة، حين وصلته ـــ بـــالبريد ـــ مجلة تتضمن قصة له، وتيقن أنه مهما تكن العقبـــات فلابـــد أن يمتلك الإصرار والمثابرة. وجلس إلى مكتبـــه يصـــوغ قصـــة جديدة..

وحسنى سيد لبيب يعى خصائص القصة القصيرة جيداً. وإذا كان يحس بالروائى أن يهمل الحشو والاستطراد والإطناب، فإنه يجب على كاتب القصة أن يفعل ذلك. القصة الجيدة هـــى التى إذا حـــذفت كلمة منها، فإن موضعها فـــى الجملـــة يظـــل شاغراً أمام الملتقى. وكما يقول همنجواى فإن النثر ليس مجرد زخارف على الهامش، لكنه بناء معمارى فنى شديـــد الحيويـــة. العمـــل الفنى يتألف من عناصر فنية، لكل منها وظيفته المحددة، والمرتبطة عضوياً بوظائف العناصر الأخـــرى. بمـــا يحقـــق التفاعل بين كلل العناصر، تحقيقـــاً لعمـــل فنـــى يســـعى إلـــى التفوق..

هذه المجموعة، تجيد الغوص فى أعماق النفس البشرية، تربط بين مكنوناتها وتصرفاتها المعلنة، تعنى بمجموعة التفاصيل

والتقنيات التى يتحقق من خلالها العمل الأدبى، لا تضيــف، ولا تحذف، إلا بقدر ما يحتاجه العمل الإبداعى بالفعل..

وإذا كان العمل الفنى الجيد هو الذى يولد فــى مخيلتنــا صدمة، يبدو لنا فى صورة مغايرة لكل ما ســبقه مــن أعمــال فنيــة، حتى وإن تأثر بها ــ بدرجة وبأخرى ــ كأننا نرى العالم من خلاله للمرة الأولى، فإن ذلك ما تحقق فى هــذه المجموعــة فعلاً.

محمد جبريل

نفس حائرة

شد أبى على يدى مهنئاً والفرحة تقفز من عينيـــه. لــم يتمالك مشاعره الزائدة عن الحد، فاحتضننى. إنها فرحة لم تزر بيتنا الريفى الصغير من زمن بعيد. وأمـــى الحنـــون أطلقــت زغاريدها، فتوافد الجيران مهنئين. أخيرا نجحت فـــى الثانويـــة العامة.

– مبروك يا ثروت..

وبادرنى بسؤال عن أى الكليات أختار. ثم أوصانى أن أقصد عمى المقيم بالقاهرة، وأقضى عنده يومين أو ثلاثة لحين تقديم الأوراق إلى مكتب التنسيق. كانت المرة الأولى التى أزور فيها القاهرة.

زرت عمى الذى يقيم فى شقة متوسطة الحال، ورحـــب بى هو وزوجته. كنت مرتبكا بعض الشئ، إذ شعرت أن ترحيبه لم يكن إلا قبولا للأمر الواقع. عمى موظف بإحدى الـــوزارات، ودخله فيما يبدو يكفى أسرته الصغيرة بالكاد. ورغـــم أن أمـــى ملأت السلة الكبيرة بخيرات بلدتنا، من طيـــور وجبـــن وزبـــد وخلافه..إلا أن أثرها لم يكن كما توقعت، فقد رحب بـــى فـــى اليوم الأول، ثم ما لبث أن انتابه فتور. لكن هيام ساعدت فـــى

تلطيف الجو، وعطرته برقتها ولطفها..فقد جالستنى وشغلتنـــى بأحاديث لا تنتهى، فتناسيت فتور أبيها، بل وأرجعته إلى وهـــم كبر فى مخيلتى وإلى حساسية مفرطة عندى.

هيام فتاة أنيقة الملبس، رشيقة القوام. لا تنكر جمالها يا ثروت، فوجهها أحلى وجه رأيته. ونجحت فى رفع الحرج بينى وبينها، وملأت حياتى وشغلتنى، فنسيت تمامـــا تلـــك الجهامـــة المرتسمة على وجه عمى، وانصراف زوجته عنى وانشغالـــها الدائم بالبيت وشئونه. واقتصر عالمى على هيام. فـــهى التـــى تسألنى عن أوراقى، هل اكتملت؟..وعن رغباتى..بل شـــاركتنى الرأى فى ترتيب الكليات، فأخذت برأيها. إنها تعد نفسها للكليات التى ستختارها فى العام القادم..وقضيت أيامـــا ثلاثـــة، أنـــهيت خلالها تقديم الأوراق، وعدت إلى قريتى الصغيرة الهادئـــة. ولا شئ يشغلنى سوى هيام. حتى مستقبلى، ألفيته باسما من خـــلال شرفتى عينيها المضيئتين..

وجالسنى أبى. حاصرنى بأسئلة متلاحقة، معظمها عـــن أخيه وأحواله وصحته. ومن خلل الكلام، أستشف سؤالا حـــائرا لم ينبس به: هل رحب بك؟ وكنت غير مستعد للإجابة. فحمدت الله أنه لم يتفوه به، فأراحنى من عبء الرد عليه. كـــان كلفـــا بأخيه، الذى لم يزره منذ سنتين أو ثلاثة. وقد اعتبر أبى نفسه – بصفته الأخ الكبير – راعيا ومسئولا عن أخيه الوحيد وأخواته الثلاث اللائى تزوجن. تعيـــش كـــبراهن فـــى نفـــس القريـــة، والأخريان نزحتا إلى قريتين نائيتين.

كان أبى، بطوله الفارع، شهما، قوى العزيمـــة. حمـــل المسئولية بعد وفاة جدى منذ خمس ســـنوات. واعتـــبر نفســـه مسئولا عنى وعن أخى وأختى. يحظى بتقديـــر أهـــل القريـــة واحترامهم، فهو (صاحب واجب)، يشـــارك النـــاس أفراحـــهم وأحزانهم. مجامل لأبعد الحدود.. ما من إنسان إلا ذاكرا أبـــى

بالخير والامتنان. سيرته على كل لسان، سيرة رجـــل فـــاضل صالح. فارتسمت في مخيلتي صورة أبي بقامته المديدة، نخلـــة سامقة تطاول السماء، مزهوة بثمارها وشموخها.

انزويت في غرفتي، متناولا صـــورة لـــهيام، أهدتنـــي إياها..صورة باسمة مشرقة، نشرت عطرها في أرجاء الغرفة. وأخذت أعد الأيام لأقرب زيارة قادمة للقاهرة. متى يجئ هـــذا اليوم؟ وأسعد بلقياك؟ واعتزم أبي السفر إلى أخيه. اقترحت عليه أن أصحبـــه. فأشار إلى أهمية تواجدي بالبيت أثنـــاء غيابـــه. وكان تواجـــدي مع أمي وأخي وأختي صـــورة شكليـــة لتقليـــد يرسيه أبي بأنني المسئول من بعده عن أمور البيـــت..ذلـــك أن قريتنا آمنة وادعة، ولا خوف من أحد علـــى أحـــد، فـــالأمور ميسورة وأمي على قدر المسئولية، لا تحملني أيـــة أعبـــاء ولا تقاسمني همومها.

وأسفت للظروف المناوئة التي حرمتني من هيام..وأبي الذي سافر يوم الجمعة فجرا، عاد في نفس اليوم عند غـــروب الشمس. دهشت لعودته السريعة، فأجابني:

– يابخت من زار وخفف..

ووصلني خطاب بالكليـــة التـــي قبلـــت فيـــها..كليـــة التربية..وسافرت إلى القاهرة لاجراء الكشف الطبي. لم أنم ليلة السفر. رنوت إلى صورة هيام شوقا لرؤيتها. وحملـــت معـــي الجبن والزبد والفطائر، رصت أمي السلة بطريقتها المعـــهودة. ونقدني أبي ما يكفيني، هامسا في أذني:

– قد تفاهمت مع عمك ليدبر لك شقة صغيرة..

وعرفت سبب زيارته السريعة، فقد أنهى فيها كل شـــئ يتعلق بي. يا لك من أب عظيم تقدر المسئولية. وبقدر فرحـــي لأني سوف أسكن في شقة مستقلة، فالقلب يتمنى أن أعيش فـــي شقة عمي يوسف وأنعم برؤية الجميلة الرقيقة هيام.

طار قلبى إلى سماء القاهرة، وزغردت الفرحـــة فـــى أنحاء نفسى. ومن حين لآخر، أرنو إلى صورتـــها الصغـــيرة. وتضايقت من تلكؤ القطار عن كل محطة يقف عندها.

سلمت على الأسرة فردا فردا، وأمد يدى إلـــى هيـــام، وشوق عارم لمعانقتها، أو طبع قبلة على جبينها يالها من سعادة لا توصف..وعمى فى هذه المرة يرحب بى ويحنو على. يبـــدو أن زيارة أبى قد أزالت الجهامة عن وجهه، واستنتجت أن أبـــى نقده مبلغا محترما من المال، يسدد به أى التزام. وأصبح عمـــى يوسف فى منزلة الأب الحانى. وتغير الموقف لصالحى، حتـــى تمنيت أن أسكن معهم، لكنى لم أحادثهم فى هذا، فقد اعتدت من أبى ترتيب كل شئ. وبالفعل، قال عمى:

–أوصانى والدك أن أبحث لك عن سكن.

ويصمت لحظات، ثم يقول:

– ليتك تسكن معنا..

فأرد تلقاء نفسى:

– أشكرك..

وتضيف زوجة عمى:

– يحصل لنا الشرف..

تبودلت نظرات ود بينى وبين هيام، جسر مودة يصل ما بين قلبينا، دون أن تنبس الشفاه.

ويتراجع عمى عن حديثه الحلو قائلا:

– لكن لأبيك رأى مخالف، بإصراره على البحث عـــن سكن.

ولم يطلب منى شئ سوى معاينة شقة بالقرب من سكن عمى. الشقة صغيرة..غرفة وصالة وحمام ومطبخ..مســـاحتها ضيقة، لكن لا بأس..وفرحت كثيرا لقربها مـــن ســـكن عمـــى. وأنهى اجراءات كتابة العقد، وبدأت أمورى تستقر. وأشـــهد أن

عمى يوسف تعب من أجلى وأعطانى من أثاثه سريرا صغـــيرا ومكتبا وكرسيين، واشترى لى بعض اللوازم، مؤكدا لــــى أنـــه يشترى حاجياتى من مال تركه أبى لـــهذا الغــرض. فــارتحت لصــــراحته وحرصه على راحتى. اقتربت أكـــثر مـــن عمـــى يوسف وقدرت ظروفه. لم يكن مجـــاملا، لكنـــه ليـــس جـــاف المعاملة. وقدرت بينى وبين نفسى أنه لو كان ميسور الحال، لما قبل من أبى مالا..وكان حريصا على أن يؤكـــد لـــى أن بيتـــه مفتوح لى فى أى وقت، و..

– احرص على تناول الغداء معنا، حتى لا تشغل نفسك باعداد طعام وتتفرغ لدروسك..

فرحت كثيرا لحرصه على مد حبال المودة. وما توهمته بأنى سأعيش فى عزلة، مجرد سحابة عابرة تنقشع شيئا فشيئا، وتجلو الصورة..صورة هيام التى يمكننى أن أراها كل يوم، ولو على مائدة الغداء، فيا لها من سعادة..

وقبل بدء الدراسة، دعتنى زوجة عمى للذهاب معهم إلى القناطر الخيرية. وسعدت بالفرصة المواتية لقضاء يوم كـــامل مع هيام. وتمنيت أن أتلقى نفس الدعوة مـــن عمـــى يوســـف. تعمدت مجالسته فى المساء، فلم يشر من قريب أو بعيد، فـــهمت بالانصـــراف وأنا فى حيرة، هل ألبـــى الدعـــوة أو لا؟ وعنـــد الباب، أكدت هيام الموعد، بأن أستيقظ مبكـــرا وأحضـــر فـــى السابعة صباحا، وأمنت زوجة عمى على كلامها..لـــولا هـــذه التأكيدات، لتراجعت.

وعدت إلى شقتى وقلبى يدق طربا وفرحا. وقلقت على سريرى، تراودنى أحلام يقظة تصورلى تشابكا بالأيدى، وعناق هيـــام، وقبلات أطبعها علـــى وجنتيـــها التفـــاحيتين، وكلمـــات مهموسة تفضح آمالا طى الكتمان، ثم رحت فى ســـبات فتطـــل صورتها فى الحلم، بأحلى ثوب وأكمل زينـــة..وســـرعان مـــا

صحوت من عالمي، شفيف الـرؤى، فـإذا بالسـاعة تتجـاوز منتصف الليل.
احترت فى أمرى..هل تنقضى ليلتى فى سهر؟
وتذكرت ابن خالتها فؤاد، الذى تلقى الدعوة من خالته، لكنه اعتذر. لم أر فؤاد بعد، لكن اسمه تردد كثـيرا..وتنـاولت صورة هيام أكمل بها ما كان فى احلام اليقظة والمنام..
شغل فؤاد مساحة من تفكيرى. فقد تعرفت عليـه مـن خلال أحاديثهم، حيث أشاروا إلى المصادفة التى جمعتنا فى كلية واحدة، فمجموع درجاته يزيد درجتيـن فقـط عـن مجمـوع درجاتى. وهيأت نفسى للتعرف على فؤاد ومصاحبتـه. نعـم، ينبغـى توطيد علاقتى به. لكن شيئا ما ينغص علـى حيـاتى، فهيام بابن خالتها معجبة. وتمثل هذا الإعجاب فى ذكـر اسـمه مرارا، حتى خيل إلى أنها تقحمه بمناسبة وبدون مناسبة. وعدت أؤنب نفسى، فما زلت ضيفا قدم من الريف، وأقحم نفسه علـى حياتهم منذ أيام قليلة، وللأسرة حياتها المعتـادة..فـهل يمكـن التطفل عليهم بطبعى واندفاعى؟ لابد يا ثروت أن تقبل الأمـور على علاتها. وهيام لم تجالسك كثيرا، لكنها جـاملتك بظرفـها وابتسامها، وكانت بلسما داوى الكثير من هموم القلب، إلا أنـه أجج نار الشوق. وبت أردد أبيات غزل قرأتـها عـن عـاشق صب، وأحاول تحوير كلماتها وتبديلها، لتصير مواكبة لواقعـى ومعبرة عن لسان حالى. وفكرت فى إهداء الأبيات إلى هيـام، لكنى تراجعت وأخفيتها داخل كتاب، وأعود إليـها مـن حيـن لآخر، أقرؤها مرة ومرتين وثلاثا، ثم أحفظها من جديد داخـل الكتاب. وأرنو إلى صورتـها الصغـيرة، فتشملنـى السـكينة وتغمرنى الفرحة، راضيا بما حققته مـن أحـلام صبيانيـة لا يشاركنى فيها أحد!

أواه يا نفس. كم عجبت لك! فما حدثت به هيام، مجرد كلمات عادية مبعثرة، لا تعبر عن شعورى ولا تترجم لسان حالى.

وفى الصباح تناولت الشاى والجبن ثم هرعت إلى بيت عمى، فألفيتهم فى انتظارى..تعمدت أثناء الرحلة مسايرة عمى يوسف فى أحاديثه وشئونه. ومن حين لآخر، أتهامس مع هيام بكلمات أسعف بها نفسى..ولا أدرى لماذا أتكتم هواى؟

وقضينا يوما باسما..كانت هيام كثيرة الاهتمام بى. لا تتركنى أجلس بمفردى. تعارفنا على مجموعة من الفتيات والفتيان فى مثل أعمارنا. تماشينا معهم ولعبنا الكرة، لكن أمنية القلب أن أختلى بالحبيبة.

وكان عمى مثال الرجل الملتزم، فقد كان حريصا على ارضاء الجميع فى هدوء ومودة. يتفق مع أبى فى حرصه على الوفاء بالتزاماته. وارتسمت صورته فى مخيلتى مثل مشرف الرحلة المدرسية الذى يعمل على راحة الجميع.

وفى العودة، ظلت هيام تحدثنى عن مباراة الكرة وكيف تفوقت على الجميع. تتضاحك معى وتسألنى إن كنت لعبت كرة من قبل. كلمات مداعبة قصدت بها أن لعبى كان متواضعا جدا، يكشف جهلى بقواعد اللعبة، فالتزمت الصمت لحظات ثم قطعته بحديث عن مياه النيل الهادئة والسماء الصافية وأسراب الحمام بديعة التشكيل وهى تحلق فى الفضاء..تضحك هيام قائلة:

– أنت تعيش فى الخيال..

نعم، أعيش فى الخيال..أصبت ياهيام..لكنه خيال يطرب القلب..

وفى ليلة، سمعت طرقا على الباب. الطارق فؤاد. رحبت به. تجالسنا نتحادث عن الدراسة الجامعية. كان نحيل القوام، يرتدى نظارة سميكة. كان مهذبا، حلو المعشر، قوى

الحجة فى حديثه. واقتادنى إلى منزل عمى، فجلست هيام توزع الاهتمام بيننا. وفطنت لعلاقة فؤاد الحميمة بالبيت. فؤاد أقــرب إليهم منى..ولكن..هل ينبض قلبه حبا لهيام؟ هل يوليها اهتماما؟ وعدت إلى بيتى مؤرق الفكر حائر الخطى..وقلقت الليل بطوله.

هيام اعتادت على فؤاد منذ الصغر، ولم تتعود على سوى أياما قليلة من هذا الصيف. وأحسست أن اهتمام هيام بى، اهتمام بابن الريف، بالضيف الذى حل بالدار فجأة. أمــا علاقتــها بفــؤاد، فعلاقة مودة امتدت جذورها إلى ســنوات بعيــدة. واعــترانى غضب عاصف، ليس غضبا منها أو مــن فــؤاد، لكــن مــن الظروف التى جعلتنى أنانيا فى مشاعرى. وكم تمنيت لو اختفى فؤاد من حياتى؟ ولكن هيهات، فها هو ذا زميل دراسة فى نفس الكلية..ترى، كم يسخر النجم بى؟

تتعدد اللقاءات، وأعرف الكثير عن علاقة فــؤاد بابنــة خالته. إنه متفوق فى الرياضيات، وهيام تعتمد عليه فــى حــل المسائل الرياضية، مما يقربه منها وان أنس، فلا أنسى تأكيدها له أن يتردد عليها يوما بعد يوم، فيقبــل طلبــها دون مناقشــة.

ترددت لحظة ثم أبديت لها استعدادى لشرح ما يستعصى عليها فى أى مادة من المــواد، وكــان صوتــى ضعيفــا، لا تكــاد تسمعه..فاستعنت بعمى أؤكد له أن هيام أخت لــى، والواجــب يحتم على مساعدتها، فشكرنى العم ولم تعلق هيام.

أحسست أنى فتى ضال فى تيه صحراء ليس بها نجــم أهتدى به، سوى صورتها الصغيرة أناجيها فى المساء، أنــاجى الوجه الجميل الذى اجتذبنى، وأتذلك إليه أن يكون لى وحــدى. أنا لا أطيق شخصا آخر تضحك معه أو تصافحه أو تحادثــه أو يغتصب منها نظرات. يالها من أنانية..ويا لك من قلب معنّــى! وأعيد قراءة القصيدة التى اقتبست أبياتها، وعدلت فيها، أنــاجى بها الحبيبة هيام.

بدأت الدراسة وتوطدت علاقتى بفؤاد. أصبح شخصـــا ضروريا فى حياتى، إن شئت أو أبيت. كان مجاملا لـــى. هـــو مهذب بطبعه. لا أنكر هذا. بل أنقد نفسى، لطبعى الريفى الـــذى يقحم هواه فى مسائل حياتية عادية. وبدأت سهرات فؤاد ببيـــت عمى..أتجسس منه على مواعيد زياراته، فكـــان يعلنـــها بـــلا موارية. فأتعمد المجئ فى أوقاتها. فينقطع الشـــرح وينشغـــلان بى..وما إن أستأذن حتى يوصلا ما انقطع. بودى لو تعـــاملنى مثلما تعامله. مازلت فى نظرها ضيفا قادما مـــن القريـــة. ذات مرة، تضاحكت مع فؤاد، وكنت جالسا أراقب ولا أشارك. ثـــم اختلفا، فاحتدت قائلة:

– ألنت قروى ساذج؟

واغتظت. هاجت مشاعرى. قلت لها:

– حاذرى ياهيام..فأنا قروى..

– لا أقصدك.

وجمت لحظات، ثم اعتذرت لى..

وعاملتنى زوجة عمى مثلما تعامل ابن أختـــها فـــؤاد. وكان عمى لا يتدخل فى شئوننا، باعتبار عالمه غـــير عالمنـــا، ودنياه غير دنيانا. وحصر اهتمامه فى شئون البيت والعمل.

وفى عطلة آخر الأسبوع، ذهبت إلى قريتى، وجمعـــت كتـــب الثانويـــة العامـــة، لأعطيـــها لـــهيام، فشكرتنـــى ولـــم تزد..واعتبرت المبادرة بداية طيبة للتقرب إليها. وحظيت برضا عمى أكثر من رضاها. وما زال عمى يلح على تناولى الغـــداء معهم. وكان وقت الغداء فرصة سانحة لأجالس هيام فى غيبـــة فؤاد. ووجدت فى ذلك ميزة أتفوق بها عليه، وتقربنى من أهـــل البيت، بل اعتبرت نفسى واحدا منهم.

وفى يوم، عدت من الكلية مرهقـــا، فاســـتلقيت علـــى الفراش ألتمس الراحة فنمت طويلا، وما اســـتيقظت إلا علـــى

صوت طرق الباب..أتتنى هيام بوجهها البشوش، تحمل فى يدها لفافة..إنه الغداء..

– لا مؤاخذة..راحت على نومة..

ثم قلت بعد صمت:

– لماذا التعب؟ سأدبر غدائى اليوم..

– كيف تدبر غداءك، وأنت تعيش بمفردك؟

أريتها فطائر وجبنا، كان يمكننى تدبر الغداء بهما..

لا شك أن مجيئها كان اهتماما بى، لا..لقد جاءتنى بناء على مشورة عمى أو زوجته أو كليهما وما كان لهيام أن تسعى إلى دون مشورة أحد. ماعليك ياثروت من كل هذا. يكفيك هذا الحنان الغامر، أيا كان مصدره. وزاد هذا الاهتمام من حبى لها وتعلقى بها. وطرحت الظنون جانبا وتفاءلت خيرا.

ألححت عليها كى تقضى بعض الوقت معى..لم تعترض..قالت:

– بالطبع سأقضى بعض الوقت، لأخلصك من هذه (الكراكيب)، وأنظف الشقة.

–هذا كثير

وشمرت عن ساعديها، وطفقت ترتب حاجياتى وتكنس البلاط، بينا شرعت أنا فى تناول غدائى، وأفرغت لها الصحون. ولما هممت بتنظيفها، اعترضت، وقامت هى بذلك. فانتهزتها فرصة لأعد قدحىْ شاى..وعندما احتسينا الشاى معا، ألقت نظرة على كتبى الجامعية، تقرأ عناوينها، وتتصفح كراسات المحاضرات، معجبة بخطى الجميل..وحدث ما لم يكن فى الحسبان، إذ سقطت من إحدى الكراسات صورتها. تنبهت إلى الصورة والتقطتها. اضطربت قليلا، ثم قلت:

– أتذكرين صورتك التى أخذتها منك؟

قالت مداعبة:

- يا أخى.. كنت أظنك تحتفظ بصورة لواحده جميلة..
- هذا هو الجمال، وإلا فلا..
وضحكنا سويا، بينا سقطت من كراسة ثانية الورقة التى كتبت على صفحتها قصيدة غزل لهيام. بسرعة خاطفة التقطتها. كانت مطوية. لا أدرى إن كانت لاحظت شيئا أم لا. لكننى قلت أدارى توترى:
- إنها مسودة محاضرة، لم أنقلها بعد فى الكراسة..
ألقت نظرة خاطفة، ولم تعلق. يبدو أنها لم تلاحظ شيئا. ووضعت الورقة فى مكانها..فإذا بها تمسك بالكراسة وتفتحـــها وتلتقط الورقة. انتفضت من مقعدى واســتأذنت ريثمــا أعـــالج اضطرابى بعيدا عنها.وسرعان ماعدت، فبادرتنى:
- ماهذا ياأستاذ؟ لم نكن نعرف أنك شاعر..
- ليس شعرى..
- وتدعى أنها مسودة محاضرة؟
تضحك، ثم تقرأ. تستغرق فى القراءة، بينا نظراتى متجهة إلـــى قسمات وجهها، أقرأ على صفحته سطورا مضيئة..
- أأهرب من النصوص المقررة، فأجدها عندك؟
- هل أعجبتك؟
- اشرحها لى ..
ولما هممت بالشرح، ارتبكت الكلمـــات علـــى طـــرف لسانى. الجمل غير مرتبة، والمعانى غير منتظمة. فقد تعمـــدت الشرح نقلا عن الشاعر، الذى يتغزل حبا وهياما..مـــاذا قلـــت؟ ..هيام؟ ..لا..فلأدار مشاعرى، وأغلفها بمزيد مـــن الكلمـــات، لكن..زادت المعانى تعقيدا وغموضا..وتضحك هيام قائلة:
- أبيات الشاعر أسهل من الشرح. خلى عنك يا أستاذ.

ومضت أيام، وأسابيع، والحال هو الحال. ما زلت أفطم حسى على الصمت. لا أبوح بما أعانى وأكابد. ومازال فؤاد هو الرابح دائما، وما زلت على حالى خاسرا..أو هكذا خيل إلى..

ومضى عام، ننجح فؤاد وأنا وننتقل إلى السنة الثانية، وأعود إلى بلدتى أقضى شهور الصيف، ثم أعود فى موعد إعلان نتيجة الثانوية العامة. أشارك هيام فرحتها بالنجاح، وأرتب لها الرغبات بأسماء الكليات، ثم تفاجئنى بقائمة رتبها لها فؤاد. طلبت منى مقارنة ما كتبت بما كتب فؤاد! يبدو أنها استحسنت قائمة فؤاد، وأتلظى أنا بنار تكوى ضلوعى. أهكذا أنت يافؤاد؟ تظل غريمى، فى الوقت الذى تلازمنى كظلى زميل دراسة أعتز به؟

تلتحق هيام بكلية التجارة. وبتّ ألتقى بها فى البيت وفى الحرم الجامعى. ونلتقى ثلاثتنا، فما فارقنى فؤاد يوما واحدا. إنه شريك فى كل لقاء يجمعنى بهيام، بين المحاضرات أو فى الذهاب والعودة..وكثيرا ما نتواعد عند محطة الركوب، وكان سكن فؤاد قريبا جدا من سكنى وسكن هيام.

صرنا كالفرسان الثلاثة، نتلازم سويا، يجمعنا الود ولا يفرقنا إنسان. وبين ضلوعى، يتمرد فؤادى لوعة وأسى على لغة الصمت التى لا أجيد سواها. صرت طائرا أخرس، لا يبين عن مشاعره ولو بالهمس.

لابد يا ثروت مما ليس منه بد. لا تكن كالضيف الثقيل يزعج أهل البيت ويضجرهم. لا تثقل على هيام. الحقيقة واضحة جلية. هيام تميل إلى فؤاد، وفؤاد قريب منها. لابد أن تعترف يا ثروت بهذا الواقع وتباركه. هذه هى الشهامة وأخلاق القرية. لا تكن ثقيل الظل، فحتى أبياتك التى استعرتها من شاعر آخر لم تتأثر بها هيام، ولم تعرها انتباها. ربما فطنت وتجاهلت مشاعرك، عمدا وقصدا، وربما هى لم تفهم شيئا ولم

تحس بنبض قلبك. أواه أيها القلب الذى لم يخفق لفتاة من قبـــل. إنه قلب بكر لم يصادف حبا آخر. فكيف بك يا قلب تتعثر فــــى الحب الأول، وتتكتم هواك؟ لا..إن حبك هـــذا مقضــــى عليـــه بالفشل. هناك فارس سبقك وغزا قلبها، واستأثر به. حقيقــــة لا تمارى فيها، فلا تخدع نفسك، ولتئد عواطفك الفياضة وترضــــى بجراح المهزوم، تداويها وتعيش حياة رتيبة بــــلا أمـــل ســـوى النجاح والوظيفة.

وعشت أياما أتعذب لما أنا فيه من حال. تغيبـــت عـــن الكلية يومين، فسأل عنى فؤاد، فادعيت زورا أن نزلة برد ألمت بى. وزارتنى هيام، نصحتنى بالراحة وتنـــاول عـــلاج الـــبرد. وتلطفت وأعدت لى قدح شاى بالليمون، زاعمة أن هذا الشراب سيشفينى. وهل يشفى القلب يا هيام؟ الداء فى القلب. وتغيبـــــت يوما ثالثا، فزارنى الاثنان معا. كأنمـــا اتفقـــا علـــى الموعـــد. وتكاسلت عن تحصيل المحاضرات. وتكرم فؤاد وأخـــذ ينقـــل المحاضرات من كراسته إلى كراستى..مازلت مصابا فى هواى، وأزعم أنه البرد أصاب جسمى. فى هذا اليوم، استأذنت هيام بعد أذان المغرب ومكث معى فؤاد يكمل نسخ المحاضرات. وظللت أدعى الإصابة بالبرد، حتى أصابنى، ففاجأتنى نوبـــات عطـــس متتاليـــة. يبدو أننى أصبت به بالإيحاء. ما علينا من كل هـــذا. فلا أحد يعرف أصل الداء غيرى. رنـــوت إلـــى فـــؤاد، لكنـــه منصرف عنى، منهمك فى النسخ، ومن حين لآخر يصلح ذراع النظارة حتـــى لا تنزلق على أرنبة أنفه. ومن فينـــة لأخـــرى، يجفف حبات العرق من على جبهته. أمعنت النظر فى وجهـــه، معجبا بإخلاصه وتفانيه. إنه ذو خلق، لا يبخل بمجهوده علـــى أحد. فإذا كان قد ساعد هيام فى دروسها لأنه يحبها، فـــها هـــو يساعدنى. إنه معطاء، مخلص أشد الإخلاص. شخـــص كـــهذا جدير بأن أكسب وده وأبقى عليه. فلماذا تقيم الدنيا لأنـــه أحـــب

هيام؟ الذنب ليس ذنبه. إنه يصاحبها منذ سنوات بعيدة، فنشأت المودة بينهما. عليك أن تزن الأمور بميزان صحيح. وهذه فرصتك لتأخذ موقفا مشرفا..موقف الفارس الشهم الشجاع، وتفسح له الطريق..

قلت له:

– أرجو أن تتقبل حديثى ولا تتضايق..

فوجدها فرصة ليتنفس الصعداء، فألقى القلم على النضد، وأسند ظهره على مسند الكرسى قائلا:

– تفضل..

كاشفته بتعلقى بهيام، لكنها لا تبادلنى الحب، وإنما تحبه هو. ذهل لكلامى، وارتج عليه الموقف..

– عفوا ياثروت. لا تؤاخذنى. أنت تفترض أشياء لا وجود لها.

–لا وجود لها!.. كيف؟

– هيام أخت لى، مثلما هى أخت لك. ولم أفكر فى أشياء أخرى غير ذلك.

أسقط فى يدى. كيف؟ هل أجرى وراء إحساس كاذب؟

– نعم، أنت واهم..أنا لم أفكر فى هيام زوجة، ولم أفكر فى غيرها. إنها بنت خالتى، أى أنها بمثابة أختى.

ويستطرد:

– لا تنس أننا صغيران على الزواج. الأوان لم يحن بعد.

ورقص قلبى فرحا. انتشيت بفرحة صبيانية..أهذا فؤاد الذى كنت أخشاه؟ ليس غريما لى ولا ندا. كدت أترك الساحة والانسحاب لأجل خاطره. هكذا يصارحنى. إذن فهيام لم يخفق قلبها حبا لأحد. هنالك أمل فى أن يخفق قلبها لى. ياله من

فرحة طاغية! كدت لا أصدق. أردت أن أعانق فـؤاد، فرحا وسعادة. أشد على يده وهو ينصرف:

– أشكرك..

وأضيف:

– على نقل المحاضرات..

– نحن أخوان.

وقضيت الهزيع الأخير من الليل أرنو إلى صورتها الصغيرة، وأعيد قراءة أبياتى التى اقتبستها من شـاعر عـاشق مثلى. وسهرت حتى الصباح أتطلع إلى الأيام المشرقة القادمة..

عدت فى الاجازة الصيفية إلى بلدتى. وما قضيت سوى أسبوعا، وجن بى الشوق إلى أضواء القاهرة، فسافرت سـريعا. وتعمدت زيارة عمى كل يوم، وأختلى بهيام، مزيدا من الوقت أقضيه معها، وقد تخففنا من أعباء الدراسة، لكننى لم أبح بمشاعرى. أحببت الوجه الصبيح، والشعر المجدول ضفيرة بسيطة تتدلى على صدرها الناهد، والعينين النجمتين المضيئتين بالأمل، والبسمة الحانية التى لا تفارق شفتيها، وصوتها الأثير..ماذا أقول لها؟ وأمها لاحظت شيئا من اهتمامى فتفرح لذلك. تجالسنا مرة وتتركنا مرات. أردت البوح بمكنون الفؤاد، فأحجم وأوثر الصمت..صوت يعاندنى ويستمهلنى. تظهر نتيجة الامتحان، وكالعادة نفرح ثلاثتنا. وننتقل إلى السنة التالية.

هاهى السنون تمر ويقترب يوم التخرج.

قررت ألا أصارح عمى أو أبى حتى أتخرج. ارتحت للقرار، وان عاكسنى القلب الذى طفق يدق دقاته المتسـرعة، فأؤنب نفسى على جفائها وعنادها.

وفى يوم، لج بى الشوق، فقررت مصارحة هيـام بمـا يعتمل فى قلبى. أبثها حديث الغرام. لا يصح أن تظل فى هواك مشلول اللسان لا تبين عن شئ. تكاسلت لم أذهب للغداء فى بيت

عمى. واعتصمت بشقتى منصتا إلى طرق متوقع على البـــاب. طال الترقب. ستأتى هيام بصينية الغداء، كما حدث مـــن قبـل. فتحين الفرصة لمصارحتها، وأستبين حقيقة شعورها نحوى، قبل مفاتحة عمى. ظل قلبى يدق مع دبيب أقدام على السلم، ما يلبث صاحبها أن يتجاوز عتبة شقتى صاعدا لأعلى أو هابطا لأسفل. وبعد جهد جهيد، حانت الفرصة..فإذا بطرق على الباب..لكـــن الطارق كان فؤاد..ما الذى أتى بك؟ إنه جاء يدعونى للغداء فى بيت عمى....

– إنهم ينتظرونك..

خجلت من نفسى، فارتديت ملابسى على عجل، وذهبت معه، فإذا بعمى يوسف جالس إلى المـــائدة، وزوجتـــه وهيـــام وأخواتها..قال لى:

– نحن فى انتظارك..نحن جعنا..

وتاهت نبضات قلبى فـــى زحـــام كلمـــات الآخريـــن. ونظرات عتاب أتوجه بها إلى هيام. لو أنـــها أنتنـــى، أم أنـــها تتهرب منى؟ لا شك أنها لا حظت شيئا خفيا، فتثـــاقلت علـــى. وربما يميل قلبها إلى فؤاد..نعم إلى فؤاد..إنها تميل إليه أكـــثر. تهتم به أكثر. إنى أتعذب...

ومن جديد، يشخص فؤاد فى مخيلتى خصما وغريمـــا. هل خدعنى حين ادعى أنه لا يفكر فى هيام زوجة؟ ربما..

وجلست اكتب لها رسالة، أطالبها فيـــها بمصـــارحتى، بإعلان حقيقة مشاعرها. كتبت ثلاث صفحات، ومـــازال القلـــم يسطر على الورق بأمانة ما يعتلج بصدرى.

وضعت الرسالة فى مظروف، لكنى جبنت. احتجزتـــها وسط كراساتى وكتبى. عشت مشتت البال ممزق الفكر لا أستقر على حال. أهادن نفسى بأن اصبرى، فلم يبـــق إلا عـــام علـــى التخرج. انحرف بى المزاج، وخاصمت فؤاد، تباعدت المســـافة

بيني وبينه، تحت وطأة إحساس طاغ بأنه يخدعني، وأنه يميل بهواه إلى محبوبتي، ولن يتورع في خطفها مني..خطف!..هكذا..وفي هذه السنة رسبت ونجح فؤاد..فتأزمت أكثر..فما عاد يهدأ لي بال أو يستقر بي حال، فاختلقت حكاية، وقلت لزوجة عمي:

– تصر أمي على تزويجي من فتاة ريفية لا تناسبني.

– الموضوع بسيط..ارفض..

– ستغضب أمي..هذا سر قلقي..

وبتلقائية قالت:

– سأحادث عمك يوسف، ليذهب إلى والدك ويقنعه بوجهة نظرك.

– لا..لا داعي..سأعالج الأمور بنفسي..

كدت أبوح بحبي، وأطلب هيام زوجة..أحجمت، التزمت الصمت أعالج تعثر اللسان. أنا طالب فاشل وفؤاد متفوق. إني أخشى أن أواجه بالرفض، وأعاني انكسار النفس.

مازلت يافؤادي تتكتم هواك، تظل طائرا محلقا بجناحين في سماء الحب، لكنك طائر أخرس..وفي يوم، أعلن عمي يوسف بكلماته القاسية نبأ خطوبة هيام..

وأسقط في يدي. تمتمت في غيظ:

– مبروك لفؤاد..

ذهل عمي. قال مندهشا:

– فؤاد..يا ابني، أقول لك خطوبة هيام الخميس القادم..

وتردد زوجة عمي:

– عقبالك..أنت وفؤاد..

– ماذا قلت؟ أليس فؤاد هو الذي...؟

قال عمي منزعجا من كلامي:

– ماذا جرى لك؟.. فؤاد..فؤاد..

وأضاف:
– العريس ليس فؤاد..
طأطأت رأسي، وقلت دفعة واحدة:
– كنت أريد طلب يدها..فترددت..ظنا بأن فؤاد سيخطبها..
قالت زوجة عمي:
– هيام أختكم. لم تخطبها أنت، ولا خطبها فؤاد..
استأذنت منصرفا، وحزمت أمتعتي عائدا إلى بلدتي، مشتعل الوجدان مبلبل الخاطر..وواجهت أبي وأمي، قلت لهما في غضب:
– سأخاصم عمي.. ولن أدخل له بيتا.
لم يفلحا في تطييب خاطري. وتدفقت الكلمات على لساني:
– ثم أنه لم يساعدني في شئ. أنت أعطيته مصاريفي بالزيادة. يعني لا فضل له علينا..
– أنبني أبي..ووبخني..
– يا ابني..لا تنفعل..أنا لم أعط عمك مالا قط. عرضت عليه فرفض، لأنه يعتبرك ابنه. إنه رفض بشدة يا ثروت. ولطيبة أخي، أشعرك أني أعطيته المال ليذلل لك أمور المعيشة، ويرفع عنك أي حرج.
أهكذا كان عمي محبا لي؟ إلى هذا الحد بلغ الحب؟
وتدثرت بفراشي أرتعش من حمى أصابتني. عولجت منها ونصحني أبي أن أستعد لفرح هيام، الخميس القادم، ولابد من الظهور بمظهر الرجال النبلاء، أفرح لفرحها وأشاركها سعادتها..
– من يحب لا يكره..

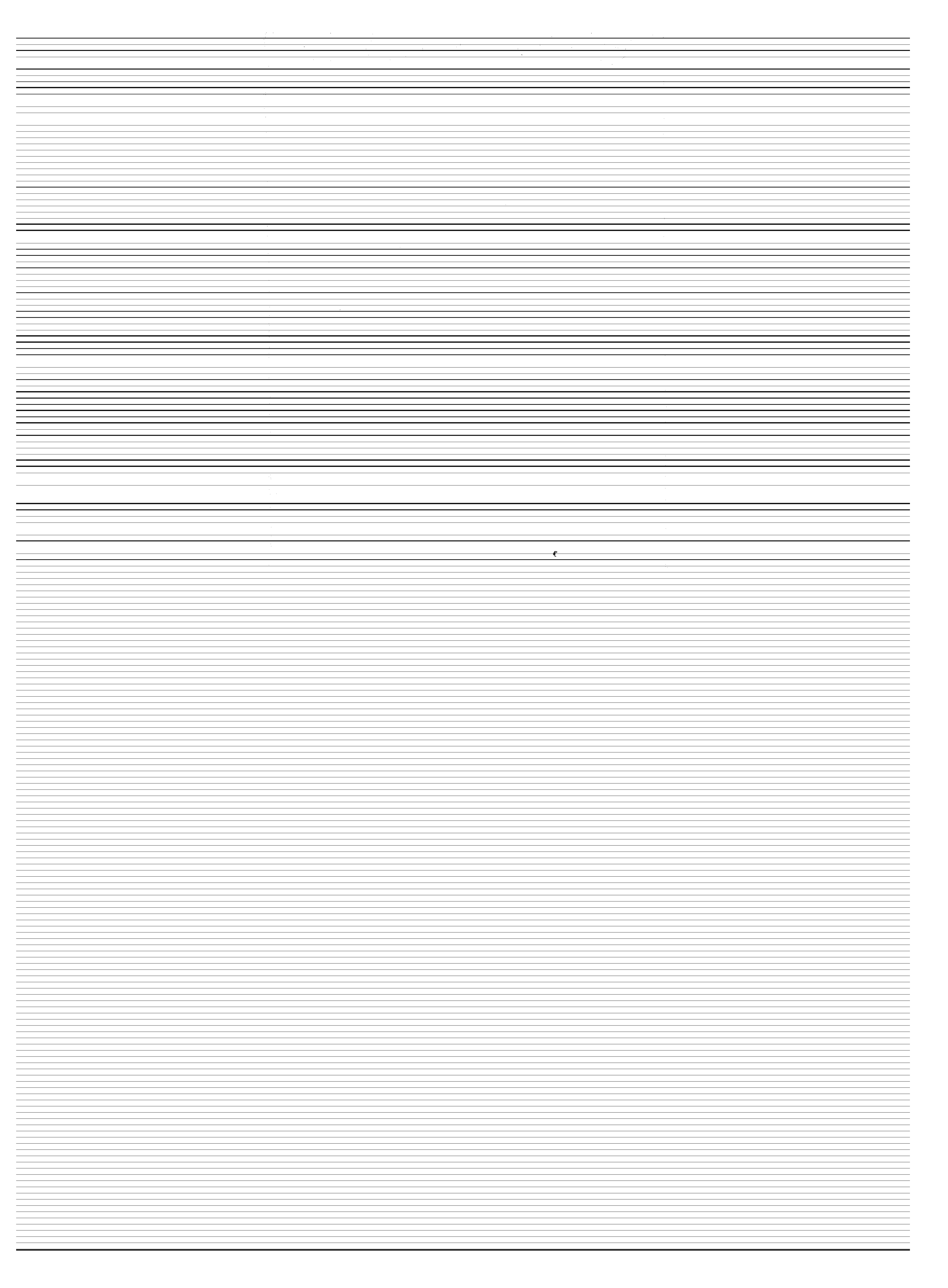
امتثلت لنصيحته..وسافرنا، حاملين الحقائب والسلال المليئة بخيرات الريف. كان الفرح كبيرا وألفيت عمى يوسف مغموراً وسط الزحام يلبى طلبات الصغار والكبار. وهذا فؤاد يساعد فى توزيع الحلوى والمرطبات. بحثت لنفسى عن دور، غير دور المتفرج. وهيام عروس فى أبهى زينة بثوبها الأبيض المحلي بنقوش الورد..وهذا عريسها، شاب مهذب لم ألتق به من قبل..

انطلقت الزغاريد وقرعت الدفوف، وصوت أمها يأتينى من قلب الزحام:

– عقبالك يا ثروت..

يحضننى فؤاد فى مودة..

ويلكزنى أبى دافعا إياى لأهنئ ابنه عمى..هيام..فتقدمت إليها أمد يدى، مصافحا مهنئا وتذكرت قصيدة غزل استعرتها من عاشق مثلى، وكتبتها لهيام..هل كانت الأبيات غير موزونة؟



لحظة طيش أم لحظة وعى..لا أدرى إن كان تصرفى ينم عن وعى وإدراك أم استهتار وحمق. وبكل المقاييس، أجده غير مناسب. إنه يجمع الصفات التى أكرهها فى الرجل..بخله، أنانيته، استبداده بالرأى..لهذا كرهته..ولم أسلم من تقريع أمى وتوبيخها لى، بأنى أرفس النعمة، وسأندم على ما فعلت. ولم أفعل شيئا سوى خلع دبلة الخطوبة، واصرارى على إرجاع الشبكة والدبلة. واجهت الموقف وحدى، بينا أمى تطيب خاطره، وتطلب منه أن يدعنى أياما قليلة..فقد رأتنى على غير أحوالى العادية. وتصرف مدبولى على حد قول لأمى ـ تصرفاً حكينا، وأبقى الشبكة معها، ثم عاد بعد إبوع واحد، يطلب الرد النهائى، فلم أزدإلا تشبثا واصرارا. فاسترد شبكته وأعتقد أنه كان سعيدا، هو لم يخسر شيئا، فالذهب الذى أشتراه، رد إليه ثانية. قلت متهكمة:

– لن تخسر شيئا، فالذهب ارتفع سعره..

أجاب ببرود:

– ربما أخسر فى المصنعية..لن أبيعها..

وضع الأسورة فى علبتها الحمراء، وحفظها، بحرص بالغ، فى حقيبته السوداء، وهو يقول ببرود يحسد عليه:

– سأحتفظ بالأسورة حتي أعثر علي زوجة مناسبة!

لم ينفعل ولم يتوتر، فاغتظت واندهشت. أهنالك صنف غريب من الرجال ينتمى إليه؟ أواه يا هند..دعيه وشأنه. دعيه

ينصرف لحال سبيله. ربما يجد صنفا من النساء على شاكلتـــه.
ولم أسلم من تقريع أمي وتبكيتها..
– الغراب يزنّ على خراب عشه..
لا أعبأ بغراب البين هذا. وماذا أتوقع من أمي التـــي لا ترى في (مدبولي) عيبا قط، طالما يشغـــل وظيفـــة محترمـــة، وراتبه مرتفع. أما أنا، فالأمر جد مختلف. بدا صارم الملامـــح، جامد الأحاسيس، وخيل إلي أنه ولد بلا قلب. ما عليك يا هنـــد من كل هذا. هو لم يغازل أحلامك، فليخرج من حياتك، وابدئي حياة جديدة. وهند التي أحبها، هي نفسي الطليقة التي تهفو إلـــى حبيب يعزف على أوتار القلب. وهند التي أعرفها، هـــي ذاتـــي الطموحة التي تتطلع إلى آمال لا حدود لها.
وقفت بقميص النوم أمام المرآة، أتأمل جســـدي بديـــع التكوين. لست مغرورة، هي المرآة عكســـت صـــورة صادقـــة لجمالي. هذا جمالي ينطق..ملامح وجهي، شعـــري، صـــدري الممتلئ..و.. صرت بجسدي معجبة.لا..قد انزاح كابوس اســـمه مدبولي. صرت أحلى وأجمل ألف مرة..و...صـ.منى نداء أمي..
– يا هند..كفاك (بحلقة) في المرآة..
ارتديت (الروب) في عجل، وهرعت إليـــها أجالســـها. أتحدث في أمور شتى، حتى أصابها ملل، فنهضت لتنام، تاركة إياي وحدي في صمـــت الليل، أتطلع إلى الصباح حيث ألتقـــي بالزميـــلات. إني أخاف عيونهن الجارحة وظنونهن الظالمـــة. أما الزملاء فلن يشكلوا عبئا، باستثناء محسن ذي اللسان السليط. أولئك السيدات والفتيات يدفعهن فضول عجيب لمعرفة حكايـــة فسخ الخطوبة، ولن يصدقن كلمة واحـــدة ممـــا ســـأقول عـــن (المدبولي) الذي أكرهه، ويرين في الحكاية أشيـــاء مســـتترة لا أحدثهن عنها. مـــا أقســـى الغـــد يـــا هنـــد، حيـــن تجابـــهين

زميلاتك..لا..كوني مرفوعة الرأس، واثقة من نفسك، وهذا جمالك الصارخ خير شاهد أن زمام الأمور كان بيدك.

توفى أبى منذ عام، ودفنت معه أمنيته بأن يفرح بليلة عرسي، مثلما فرح بأخواتى هنية وهدى وهالة. الأجل لم يمهله. تركني وديعة عند أمي، أو ترك أمى وديعة عندى. وما فتئت أمى تذكرنى بوصية أبى، بأن تفرح بتزويجى من رجل مناسب. وتمثل هاذ الرجل فى (مدبولى). قدمته لى خالتى على أنه عريس (لقطة). اتحدت أمى وأختها، واتفقتا فى الرأى..حوصرت بينهما فامتثلت. وسرعان ما انكشفت لى أنانيته وبخله وجموده، فجاهدت كى أفك الخطوبة، وأحرر ذاتى من إسار بغيض. واليوم ها أنذا أغنى أفراح قلبى..صرت حرة طليقة، مثلما العصفور الأخضر الواقف بسور شرفتى. لكن الغد يأتى بمرارته. لابد من مواجهة الزميلات. لا..سآخذ اجازة عارضة، حتى أهيئ نفسى لملاقاتهن. عند سماعها صوت جرس المنبه، هرعت إلى توقظنى، ومادرت أنى لم أنم ليلتى. فرحت لأجازتى، واحتضنتنى عساى أغمض عينى، بعد ما قلت:

– نفسى أتأخر فى النوم، وأنعم بيوم الأجازة.

أشهد أن أمى عاملتنى بحنان غامر. تناست أمر (المدبولى). قمت بزيارة أختى هنية، وبيتها قريب منا. أمضيت معها النهار بطوله، وغمرنى زوجها بحفاوته، واستمتعت بشقاوة الولدين ياسر ومها، وحدثت هدى وهالة هاتفيا. كنت فرحة وأنا أزف الخبر لجميع الناس، رغم أنهم يتأسون لحالى، ويتمنون لى رجلا يفهمنى وأفهمه.

هذا يوم من أجمل أيام حياتى. ذهبت عصرا إلى مصفف الشعر. وحرصت أن اذهب إلى عملى جميلة و أنيقة.

اشتريت ثوبا زاهي اللون، منقوشا ومرصعا باللآلئ الصناعية، وحذاء وحقيبة..كأن اليوم عيد..

توجهت إلى عملي في أبهى ثوب وأحلـــى زينـــة. لـــم يصدقوا ما قلت، وظنوا خطأ أن هندا زفـــت إلـــى عريســـها. واستغربت الزميلات ما أخبرهن به، ومظهرى الأنيق. منتـــهى التناقض..ورنا محسن إلى وجهى لم أسلم من لســـانه الســـليط، وهو يحدق في بريق عيني، وفي شفتي المصبوغتين بـــالأحمر، وتسريحة شعرى، و..حمدت الله أن أستدعانى سامى الحســـينى لينقذنى من قفشاته. دهش المدير لمظهرى غير العادى. أجبـــت دون سؤال منه:

– فسخت الخطوبة..

فغر فاه. ما أقوله عكس ما يراه. فعلام إذن...لكنه لـــم يصرح بشئ. سالنى عن السبب، فأجبته بكلمات موجزة حاسمة:

– كان بخيلا..وأنانيا..و..بلا قلب..

خلع النظارة السميكة مـــن علـــى عينيـــه، يريحـــهما، وأمارات الحزن بادية على وجهه. تفوه بكلمات طيبة، متمنيا لى التوفيق. شكرته وخرجت سريعا. وحصرت اهتمـــامى فـــى أن يعرف الجميع، وأن يمضى اليوم كيفما اتفق. وإن كنت حـــذرة من اللقـــاء بشلة الأنس التى تضم أنيسة وفوقية وســـعاد، فلـــن أسلـــم من تعليقاتهن اللاذعة. وحمـــدت الله أن أنيســـة قـــامت بأجازة، وانشغلت فوقية بإعداد تقرير عاجل، وانجذبـــت ســـعاد إلى، تلاحقنى بأسئلتها، واضطررت أن أرضى فضولها وأحكى لها كل شئ تفصيلا. ولم ينقذنى منها إلا صوت الساعى، الرجل الطـــويل النحيل جدا، يطلب منى مقابلـــة ســـامى الحســـينى. عجبت. لم يكن هنالك أمر يستدعى المقابلة. كل أعمالى أنجزتها على خير وجه. هرولت، وأنا سعيدة لقطع حديث سعاد معـــى. أشار بيده كي أجلس. جلست مطيعة. ساد الصمت بيننا، منتظرة

منه الحديث. رجع بجذعه إلى الوراء، مسندا ظهره، رانيا إلىّ.
ثم سأل فى حزن:
– ألم يكن هناك حل؟
فهمت سؤاله، تغاضيت عنه وسألت:
– ماذا تقصد؟
أجابنى بهدوء يشوبه ألم أحسست به من مخارج الألفاظ:
– أقصد..فسخ الخطوبة..
و ما دريت إلا بالكلمات تنثال على لســـانى، شارحـــة مفسرة..أفضت فى الكلام، وهو لى خــير منصــت. أغرقتــه بالتفاصيل. ظللت أتحدث مسترسلة، ولا يقــاطعنى إلا بكلمــات قليلة..وفى النهاية، دهشت لسؤاله:
– أما من حل آخر؟
كانى أمام قاضى المعارضات، يناوئنى بوجهـــة نظـــر أخرى. طلب لى شايا، على غير عادته، وتلطف معـــى حيـــن رآنى محتدة، وظننت أن المدعو (مدبولى) حضر واشتكى لــــه، فإذا بى أسأل فى عصبية:
– هل حضر إليك؟
ونهضت متوترة، أهم بالاســـتئذان، فابتســـم ابتســـامة صغيرة، وهو يشير بكفه كى أجلس، قائلا:
– لم تشربى شايك بعد..
حاول تهدئتى، فانحاز لوجهة نظرى، ودافع عن نفسه– هكذا أتخيل– بأن (مدبولى) لم يحضر إليه وأن مصلحتى تهمه. شكرته على نبل مشاعره، ولذت بصمت أرشف خلاله الشـــاى، وقد شملنى هدوء نسبى. أوضح أن فسخ الخطوبـــة قـــد يكـــون ضروريا إذا لم يكن ثمة حل آخر. وأكد لى أنه استدعانى كـــى يجد حلا يعيد المياه إلى مجاريها. ولما سدت الطـــرق أمامـــه، استسلم وتبنى وجهة نظرى. وخرجت يغلفنى هدوء لم أنعم بـــه

من قبل. ماذا فعل بى سامى الحسينى؟ صرت قطة طيعة. ولــم أبح بسرائر النفس لشخص غيره. حتى امى لم تستدرجنى للبوح مثلما فعل هو. أى شخص هو؟ خرجت من مكتبه أفكـــر فـــى اهتمامه الزائد بى. أهو عطف؟ أم حنان غامر؟ أم عاطفة نبيلة؟ أيا كان..فقد استحوذ مساحة من تفكيرى. كبرت المساحة شيئـــا فشيئا.واسترحت له..لكن سعاد صدمتنى حين أبنت لـــها عـــن أحاسيسى، أتت كلماتها كصوت الرعد...

– سامى الحسينى معروف بمغامراته مع كثيرات..

أسقطتنى من حالق، من السماء الصافيـــة ذات النجــوم المتلألئة، وارتطمت بصخرة الواقع. هل يعتبرنى صيــدا؟ هــل يستعد لنزوة جديدة معى؟

لم أنم ليلتى. كم تمنيت لو لم أسمع من سعاد شيئا، فقــد غمرنى بحنانه وحرصه على لم الشمل..أم أنه يقصد التمويه كى تقع الفريسة – التى هى أنا – فى شباكه؟ نعم، هو مهذب، بالغ الرقة، عذب الكلام، مجامل لأبعد حد، لكنه لم يتزوج رغم أنـــه فى الخامسة والأربعين. يا لك من رجل محير، يا مـــن تدعـــى سامى الحسينى! تنصحنى برأب الصدع، وأنت فى حاجة لمـــن ينصحك بالزواج. لا.. لا تتدخلى فى حياته. لا تنسى أنه المدير. يجب أن تكون علاقتك به فى حدود العمل. مـــا بـــك ونزواتـــه ومغامراته النسائية؟ كل رجل حر فى حياته الخاصة. لكنى أشهد له، أنه لم يشر من قريب أو بعيد لمثل تلك العلاقات، ولم يحاول أن يغمز أو يلمز. كان محترما ونبيلا. أيكون ما يتقوله النـــاس محض افتراءات يرمون بها رئيسهم، نقى السريرة والضمير؟

بت ليلتى مؤرقة، مشغولة بأمره، أجتر كلماته القليلـــة، وأستعيد اندفاعى وافاضتى فى أمور تخصنى..وفى صباح اليوم التالى، لم أنتظر حتى يطلبنى..وجدتنى تلقاء نفسى مدفوعة إليه، فيرحب بى..أجلس صامتة هادئة..وأجده يحثنى على الـــتراجع

عن موقفى المتعنت، وأعود إليه، لكننى ازددت إصرارا وعنادا. تعاطف مع قضيتى، واستمالنى للحديث معه. وبدأ يحدثنى عن الوحدة التى يعانى منها. ها قد بدأ يظهر على حقيقته. أنصت. أراغم نفسى كى لا أتسرع فى الحكم عليه. آه لو أعرف الغوص فى أعماقه وسبر أغواره! لكنه - ويا لدهشتى - لم يحدثنى عن عشيقاته ومغامراته، فقط حدثنى عن أمه المريضة، وعن عذابه وتردده بها على عيادات كبار الأطباء. كلما سمع عن طبيب نابه حاذق، سارع بها إليه، لعله يجد الشفاء على يديه. أنصت إليه، وهو يتحدث بتأثر وانفعال. أرنو إلى قسمات وجهه، وحركات يديه، ودعوت لها - من كل قلبى - بالشفاء العاجل.

خرجت من مكتبه شديدة التأثر، فإذا بشلة الأنس يلتففن حولى ويبتسمن..أنسية وفوقية وسعاد..لم يدارين أحاسيسهن، فقد انتظرن طويلا حتى خرجت. مكثت عنده نصف ساعة. لم أعرف الوقت إلا من فوقية. وأنيسة تنبهنى إلى أنه لا يجالس أحدا أكثر من خمس دقائق، ويودعه بوجه صارم، وتعليمات مشددة بالالتزام بنظام العمل..هذا إن أطال المقابلة إلى الدقيقة الخامسة..وبدأت يتغامزن حوله. حذرتنى فوقية من الاندفاع وراء كلماته المعسولة. لكنى لا أصدق أقاويلهن، وواجهتهن بابتسامة ساخرة. ولم أفض بشئ سوى أن أمه مريضة. فتضرب أنيسة كفا بكف..

- المسكينة!.. هل بلعت الطعم؟

طعم؟ يالحيرتى بين سامى وبين شلة الأنس، وألسنتهن الجارحة، غير المطابقة للواقع الذى ألمس. فى المساء، شخصت لسماعة الهاتف. بودى أن أرفعها وأطلبه. الحجة قوية. المحادثة للسؤال عن أمه المريضة، وليس ثمة سبب آخر. ونبضات قلبى تزداد سرعة. أكاد ألهث. شئ فى نفسى يجعلنى أمانع، متوهمة

أن الجرس سيرن. ومضت الأمسية فى عذاب نفسى قاتل. شئ بداخلى يعاندنى، منتظرة منه أن يطلبنى. وأفقت من شــــرودى، بأنه ليس ثمة سبب جوهرى يحفزه. وهل حادثك من قبـــل؟ ولا مـــرة ياهند..لماذا إذن تتوقعين رنين الــــهاتف، هـــذا المســـاء بالذات؟ ألأن قلبك ينبض شوقا لسماع صوتـــه؟ ومــا أدراك أن قلبه ينبض مثلك؟ ربما هو مشغول بمرض أمه، أو بسهرة مــــع حسناء من حسناواته كما تدعى زميلاتك. وفى لحظة ضعـــف، أدرت القرص، سمعت صوته، ووضعت السماعة ســـريعا دون أن أكشف عن شخصيتى. إذن، هو مقيم ببيته يرعى أمـــه، ولا يرتاد النوادى الليلية. إنه يحقق أمنية بداخلى، أن يكـــون كمـــا رسمـــته، وكما يدل مظهره، كــــى أقضـــى علـــى الشائعـــات المغرضة وأدافع عنه. فتحت باب الشرفه، أرنو إلى العصفـــور الأخضر الذى يلوذ، من حين لآخر، بســـور الشرفـــة. فرحـــت به..تفاعلت..تملكتنى رغبة..أن أمسك به..انفلت من بين يـــدى، وطار بعيدا..

دون سبب، عرفت الطريق إلى مكتبـــه. أدخـــل إليـــه مرتاحة النفس. أحييه وأسأل عن والدته. كيف حالها؟ واسترسل يحدثنى عن الأدوية التى تريحها، وأدوية أخرى تتعبها. أطلـــت الحـــديث معه. بدا عليه التأثر لحالها. إنه يشبهنى. هو يعيـــش مع أمه، وأنا أعيش مع أمى. وليس فى أفقه شعاع ضوء يبيـــن عن فتـــاة أحلامه، من تكون؟ ولا يكشف عـــن دخيلتـــه. وأنـــا أنتظر من يصادف هوى فى فؤادى، ويصدق القول معى، بشرط ألا يكون بخيلا وأنانيا مثل مدبولى. وقد وجـــدت كثـــيرا مـــن خصال أحبها فى شخص سامى. كما أن قلبى ينبض سريعا كلما التقيت به. وحمدت الله أن الحديث عن أمه كان وسيلة للتقـــرب إليه. لكنه ضنين فى التعبير عن إحساسه نحـــوى، ولا يطـــرى جمالى مثلما يطريه الآخرون.

واضطرته ظروف العمل أن يسافر إلـــى الإســـكندرية، لمدة يومين. فسألته عمن سيلازم والدته..

– لا أحد..

– سأزورها، وأسأل عنها بالتليفون..

– أكون شاكرا.

زرت السيدة الطيبة وآنستها. ســاعدتها فيمـــا تطلــب. فرحت بى كثيرا، وتمنت لو أبيت معها الليلة، لكنى اضطررت للاستئذان، حتى لا تقلق أمي. وما إن عدت إلى البيـــت، حتـــى حادثتها بالهاتف، وأطلت الحديث، حتى لم يعد لديها وقت تقضيه بمفردها إلا سويعات النوم. وفى الصباح الباكر، اتصلـــت بـــها لتتعاطى الدواء فى حينه.

عاد سامي الحسيني. طلبني ليشكرني. واعتبرنى أختا لم تنجبها والدته. عرفت أنه وحيد. لا أخ ولا أخت لـــه. ســعدت لكلماته النابعة من القلب. واعتبرت منزلـــة الأخـــت، إعـــزازا وإكـــبارا لشأني. قربت المسافة بيني وبينه، لكن شئون العمـــل تقتل الساعات، ولا تسمح لى بالإبانة عن مكنون الفـــؤاد. هـــو حريص على طبعه المهذب وكلمات الود، ولا يتعداها بكشــــف لواعج الهوى..

تحادثن بصوت عال، بكلمات رخيصة. يغمزن ويلمزن حول سامي الحسيني، ويباركن حبـــه الجديـــد. عرفـــت أننـــى المقصودة، وأننى الصيد القادم لـــه. كرهتـــهن. مـــا أرخـــص الكلمات، وأهون المشــــاعر عندهـــن. تراءيـــن لـــى بقلـــوب حجرية..فوقية ببدانتها غير المألوفة، تنؤ بكتل الشحم، ولســـانها الزلق..وأنيسة قليلة الكلام، لكنها فـــى كلمـــة واحـــدة تصيـــب المشاعر فى مقتل..وعلقت بذهنى جملتها الأثيرة:

– المسكينة بلعت الطعن..

أما سعاد، فأخفهن إيلاما. إذ أن كـثرة كلامـها تفقـده مضمونه. تظل تثرثر مستهدفة تقصى أحوال زميلاتها ومعرفة أخبارهن، فضولية لا أكثر..عاتبتها..

– هل يصح هذا؟

انتحت جانبا بفوقية وأنيسة، وهمست بكلمات لم أسمعها، فلاذ الجميع بالصمت، وألفى محسن نفسه وحيدا فى جو صامت لا يعجبه، فأشعل لفافة دخان، وانهمك يفحص ملفات أمامه..

ووجدت نفسى تلقاء نفسى، أهرع إليـه. رحـب بـى. أصبح يسعد بلقائى. جلست إليه أحادثه فى أمور شتـى، قرابـة الساعة. لا أدرى كيف تتواتر مثل هذه المواضيع الكثيرة. هـى رغبة مشتركة فى إطالة الحديث. موضوع واحد لا يتطرف إليه أحدنا، لا من جانبى ولا من جانبه، فلم يكاشف كلانـا الآخـر بحقيقة هواه. فقط اعتبرنى أختا له، فبادلته المجاملة بأنى أعتبره أخا لم تنجبه أمى..فأمى لم تنجب سوى أربع بنات. اكتفينا بمـا قلناه، بأننا أخ وأخت، ولم نـزد..وكنـت حريصـة علـى وأد أحاسيسى ومشاعرى طالما هو لم يبادلنى مثلها. لكننى...أكـاد أشم عطر أنفاسه. أكاد أسمع وجيب قلبه. أكاد أرى الشوق فـى بؤبؤ عينيه. أكاد أنطق بأحاسيسى..أكاد..لكنى أتراجع وأجبـن، فلا أنطق بكلمة واحدة سوى أنه أخ لى..فيبادلنى بكلمة واحـدة، بأننى أخت له. كنت فى هواه أعانى، وأسأل نفسـى: "لمـاذا لا نختصر المسافات ونتصارح؟".

ضقت ذرعا بحالى. عدت إلى البيت، وأنا أكاد أصارح أمى بهواى. ترددت لحظات. وخشيت أن أنبس ببنت شفة، حتى لا تلح على بأمر الزواج منه. فهذا موضوع قد يطول بحثه، مع شخص كتوم مثل سامى، لا تنتقل مشاعره بسهولة، من قلبه إلى طرف لسانه، وإن كان سلوكه وحياته ينمان عن إنسـان بـالغ الرقة، بالغ الحساسية. يبدو أنه أعجب بى، مثلما أعجبت به، من

اهتمامه الزائد بى منذ علم بفسخ الخطوبة. فهل كانت الخطوبة حائلا بينه وبين الإبانة عن مكنون الفؤاد؟ غمرنى فرح داخلى. كدت أطير فرحا. هو الحب ياهند يطرق بابك، يتسرب أريجه إلى شعاب نفسك شيئا فشيئا فتنتشى..لاحظت أمى ما أنا فيه من فرح. سألتنى إن كنت حصلت على مكافأة أو علاوة تشجيعية، لاسيما أنى ابتعت أشياء عديدة..جاتوه وفواكه، واشتريت لها طرحة كانت قد طلبتها منى. طبعت قبلة على جبينها، بعدما لفت الطرحة حول رأسها. لكنها – دون قصد منها

– عكرت مزاجي وقلبت سحنتى، بكلمة بسيطة قالتها:

– مدبولى طلب من خالتك أن تعود المياه لمجاريها..

قلت في حدة:

– نجوم السماء أقرب له.

انزويت في غرفتي غاضبة. ألوم – بينى وبين نفسى – خالتى وأمى. لماذا ياسامى، يا جوهرتى النادرة، يقرنون اسمك بالمدعو (مدبولى)؟ هم لا يعرفونك..لا يعرفون رقتك، رجولتك، دماثة خلقك، نجاحك فى عملك..أليس فى دنيا أمى وخالتى غير هذا المطرود من حياتى؟ هاجس خفى عاندنى، وقال ضمن ما قال: "لا تظلمى مدبولى، هو إنسان له طبعه وله دنياه"... ورددت الهاجس بقولى: "ليكن هذا طبعه وهذه دنياه. وله الحق أن يعيش بعيدا عنى، ويختار شريكة تناسبه حياته، بالطريقة التى تحلو له"..فتحت الباب، كأنها أحست بزوابع القلق تكاد تعصف بى، وتدمر بواعث المسرة بقلبى. جلست بجانبى، تطيب خاطرى بكلمات حانية..

– كونى مطمئنة أنك صاحبة القرار. لن أفرض عليك رجلا رغما عنك.

– لماذا إذن..؟

قاطعتنى:

– حسبت أن رفضك له، كان انفعالا وقتيا..

دق جرس الهاتف. انخلع قلبي لرنينه. اضطربت. أمسكت بالسماعة فى لهفة وشوق. ويا خيبة الأمل..فوقية هى المتحدثة، فى الوقت المتأخر من المساء. قد تبلغنى بعمل أجازة، لكنها فاجأتنى بما لا أعرف!..فقد احتد سامى مع مدير مكتبه منير، لأخطاء وقع فيها حين كتب تقريرا..ولأن فوقية تعطى الأمور أكبر من حجمها، طلبت منها ألا تشيع ما تعرف على الزملاء والزميلات. كانت مصرة على كل كلمة قالتها، فعملت على تخفيف ما حدث، وارتبت من كلامها، لأن سامى لم يقل لى شيئا. نمت ليلتى قلقة. لماذا لم تصارحنى يا سامى؟ ربما تجد عندى رأيا يفيدك. وعاد هاجس يطيب خاطرى بأن فوقية كثيرة اللغو، ولسانها الزلق قد يوقعها فى حديث كله مغالطات. خلاصة القول أن كلام فوقية ليس حجة أسلم بها. أمسكت بالسماعة أطلب سامى لأول مرة..وتمنيت ألا يرد، فساعة الحائط تشير إلى العاشرة..الوقت غير مناسب..جاءنى صوته الرقيق:

– آلو....

وازاء نبضات قلبى المتلاحقة، وضعت السماعة..جبنت..واطمأننت فى الوقت ذاته على لواذه بالبيت. ليس كما يلغون حوله بأنه من رواد النوادى الليلية، وأن له عشيقات..وشنف أذنى صياح عصفور صغير. نظرت إليه من خلل خصاص باب الشرفة. كان واقفا متشبثا بالسور، فى دعة وسكينة..راقبته لحظات، ثم لذت بفراشي، أسحب الغطاء على جسمى كله، أستجدى النوم أن يزور أجفانى..

وفى العمل، حرصت على مقابلته، كى ألومه وأعاتبه. أنا أقرب انسانة له. لماذا لم يقل لى؟ دخلت مكتبه. جلست قبالته. لكنى احترت. من أين أبدأ الوم؟ كيف أعتب؟ صمت

لحظات. وقطعت صمتي بسؤالي عن حال والدتـــه. وتراشقنـــا بكلمات عادية، ثم عاد الصمت يلفنا. بودى لو يحدثنى عما قالت فوقية، لا سيما أنى سمعته من كثيرات..ولما لم يتكلم، قلت لـــه فى دفعة واحدة:

– لماذا لم تصارحنى بما حدث بينك وبين منير؟

كنت منفعلة.

ابتسم ابتسامته الحانية، فهدأ انفعالى. وظل صامتا إلـــى أن شملنى الهدوء..

– لم أشأ اقحامك فى أمور كهذه.

وطمأننى بأن منير قدم طلبا لنقله فوافق عليـــه. همـــس مطيباً خاطرى:

– لا أحد يعرف الخبر..

وفرحت لأنه آثرنى بسر لا يعرفه أحد. خرجـــت مـــن مكتبه كاتمة الخبر، واثقة من جسور الثقة الممتدة بينى وبينـــه. ولما راجعت نفسي، عرفتً أنه من الأفضل ألا أكون طرفا فـــى نزاع أو خلاف، لا سيما أننى مرشحة، بحكم أقدميتى، أن أكون مديرة لمكتبه. وأيقن من حولى بهذا، وبـــدأوا يتـــوددون إلـــىّ، ويكسبون ودى.

وبعد أيام قليلة، صدر قرار بنقله، وآخر بشغلى مكانـــه. وكان أمرا طبيعيا لم يندهش له أحد. وأبانت أنيسة أن خلافه مع منير كان مقصودا، لا ختيـــاره لـــى، و "عينـــه علـــىّ" مـــن زمن..تشهد بذلك مقابلات عديدة أجراها معى. لكن هند – أنا – تتثاقل علينا، ولا تحكى لنا شيئا.

سخرت من كلامها. ما دار بخلدى شئ كهذا. نعم كنت شديدة الاهتمام بسامى، معجبة به، وأتمناه لقلبى حبيبـــا، ومـــا قصدت منصبا ولا ترقية. إنه من دواعى الفخر أن يختـــارنى. لكنه، من زاوية أخرى، ابتعد عنى مسافات بعيدة. كنت أتمنـــاه

يدخل بيتنا خاطبا. آه لو تعرف الزميلات، أنى أتمنـــاه شريكـــا لحياتي. الآن، تعقدت الأمور. مجال العمل لا يسمح بمثل هـــذه العواطف. ويا قلبي..أيها المسكين..عليك أن تئد عواطفك.

في الأيام الأولى من عملي الجديـــد، تـــهيبت كثـــيرا، وتحاشيت لقاءه. كان موقفا صعبا، أن أداري ما أحس، وألـــتزم بصرامة العمل كآلة صماء. نعم، أحسست بزهو للعمل الجديـــد، وحضوري بعض الاجتماعات كطرف مهم. بدأ يعتمد على فـــي أمور عديدة. أما الزميلات، أو شلة الأنس، فقد تحاشين الحديث معي إلا فيما يخص العمل، خشية أن أنقل لســـامي شيئـــا عـــن أحوالهن، وضايقني هذا كثيرا، لكنني امتثلت للوضع الجديد.

مرت علاقتي به بمرحلة جمود. والمقولة (رب ضـــارة نافعة) أصبحت بالنسبة لي معكوسة، فالنفع الذي حصلت عليه، أضر بقلبي النابض بحبه. مرت الأيام ثقيلة، وأنا غـــير فرحـــة بمنصبي الجديد..إلى أن جاء يوم، حمل لي الســـاعي الطويـــل النحيل، مظروفا، بداخله بطاقة تهنئة بعيد ميلادي، الذي يوافـــق اليوم. كدت أنسى، لكنه لم ينس. لله درك مـــن انســـان رقيـــق. رقص قلبي..اندفعت إليه أشكره. تمنيت لو أطبع قبلة على خده. وانتهزتها فرصة فحدثته عن أحوالي، فانبرى هو الآخر يحدثني عن أحواله. انسال بيننا الكلام عذبا سلسا. ووجهت إليه دعـــوة لحضور حفل عيد ميـــلادي، اليـــوم، فوافـــق، وطلبـــت إذنـــا بالانصـــراف، فوافـــق. تراقصـــت طيـــور المنـــى مـــن حولي..اشتريت تورتة وحلوى، وشمعا وأوراق زينة. لم أكـــن خبيرة بهذه الأمور. لم أحتفل قط بعيد ميلادي، ولا كنت أحفـــل به. اتصلت من أقرب هاتف بأخواتي هنية وهدى وهالة، كـــي يحضرن هن وأزواجهن وأولادهن. اندهشن لهذا الحفل الطارئ! وقبلن الدعوة حتى يزرن أمي أيضا! طلبت منـــهن الحضـــور مبكرات، ليساعدنني، ودعوت خالتي..واكتفيـــت بـــهؤلاء. وإن

نبشت ذاكرتى بحثا عن صديقات..اكتشفت أننى أعيش بلا صديقات. كان لابد يا هند أن تكون لك صديقة. تذكرت إحسان..ترددت فى الاتصال بها. أحس بنظرة حقد ساكنة دائما بنظراتها..لا يهم..ينبغى أن اكون طبيعية. لكن..من المحزن أن أعيش بلا صديقات. رثيت لحالى. وكشف اهتمامى بسامى شيئا كان ينقصنى. ولأول مرة أحتفل بعيد ميلادى. اشتريت ثوبا جديدا، وحذاء يناسبه. أنا اليوم مشغولة. أنا اليوم فرحة، سعيدة. وهرعت إلى البيت أزرع الفرحة فى قلب أمى، أحضنها، أغمرها بالقبلات. كأنى بنت السادسة عشر. صغرت كثيرا، صرت أحلى، صرت أجمل. اليوم أفراح قلبى.
عجبت أمى لحالى، قالت مستغربة:
– منذ متى نقيم حفلا لعيد ميلادك؟
– بدءا من اليوم..
كان الحفل متواضعا جدا، وكان جميلا وبديعا. فقد اكتمل شمل العائلة فى ليلة شحيحة من العمر. لم تجتمع أخواتى وأزواجهن وأبناؤهن من قبل، ورأيت أمى فى أوج سعادتها، وتتمنى خالتى أن يكون (ابن حلال).. تقصد سامى الحسينى، الحبيب الذى يدق قلبى بمجرد ذكر اسمه. لاشك أنه آت الليلة. طفقت أحدثهم عنه، عن الإنسان الوحيد الذى اهتم بذكرى ميلادى. بدا وجه هنية كأنه مدهون بالسمن، من أثر حرارة فرن الطباخ، وهى تعد صوانى المكرونة والفراخ، والجلاش والبسبوسة. وعلت الفرحة وجهها، برغم إرهاقها، وشقاوة الولدين اللذين يضايقانها من حين لآخر. وكان عليها أن تنهى أعمال الطبخ، وتعطى النصائح لياسر ومها وتطيب خاطرهما.
وبعد الساعة السابعة، مر الوقت ثقيلا مضجرا..لم أعد احتمل أحدا..حتى تصايح الصبية وتصارخهم، أفقدنى أعصابى. بت عصبية، هكذا نبهتنى هالة. لأول مرة تسمعنى هذه الكلمات:

- أنت عصبية..

حاولت تهدئة نفسي، جلست على كرسي صامتة، لا أكلم أحدا. تركوني..ومكث كل فى حاله، صامتا. حتى الأولاد، خفت حركتهم وقل صياحهم. أخذت أختلق لسامي المعـــاذير، وأنــه سوف يحضر..ربما يحضر في الثامنة. انخلع قلبي مع عقــرب الثواني الذي جمدت نظراتي عليه، في ساعة الحـــائط. الوقــت الآن ليس في صالحي. تريثت حتى تعلن الساعة الثامنة تمامـــا. لعله آت في هذا التوقيت. وفى الثامنة، قفزت من على مقعـــدي وهـرعت إلى الهاتف، أستجديه أن يدق. رفعت السماعة، أطلب رقمه..أتاني صوته، لم أكشف عن نفسي، ووضعت السماعة في ألم بالغ. انكفأت على الفراش باكية..لحظات..ومسحت الدمـــوع من عيني حين أحسست بوقع أقدام تدخل الغرفة. سمعت صوت غريب، زوج هدى، يهمس متوددا:

- حان الوقت لبدء الحفل....

ومن خلفه بادرت هدى تقول:

- هيا..عصافير بطني تصرخ..

ولما لم أضحك معها، سارعت تقبل جبيني، فاحتضنتها ونظراتي تتجه إلى غريب، الذي تودد إلـــيّ مبتســـما. امتثلــت لهما..

أشهد أن الجميع التفوا حولي كعقد الياسمين. أشهد أنهم أنسوني أحزاني، ونجحوا في اقتلاع نتوءات الأسى والحزن من قلبي المعنى. كنت فى مسيس الحاجة لجمعهم الســـعيد. قــرأت الفرحة في عيني أمي، وهي تزهو ببناتها وأزواجهن وأولادهن، وتدعو لي أن يرزقني الله بابن الحلال، وتؤمن خـــالتي علـــى كلامها. واتجهت معهم إلى المائدة نتناول العشاء.

ووزعت هالة أطباق الحلوى والشـــراب البـــارد، بينـــا ياسر، بصفته أكبر الأولاد سنا، وإن لم يتجاوز العاشرة. أخـــذ

يعبث بالمسجل، يعمل على تشغيل الشرائط، باحثا عـــن أغنيـــة تناسب عيد الميلاد. اقترب منى معاتبا:

– ما هذا ياخالتي؟ كل الشرائط لأم كلثوم؟

– كلها شرائط جدك، الله يرحمه. كان يعشق صوتها.

وبحثت له عن شرائط أخرى بأحد الأدراج.واختار ياسر أغنية (هلت ليالى حلوة وهنية)، باعتبارها الأنسب. شدنى ياسر لعالمه البهيج، وأسرعت هالة ترفع من صوت المسجل..وسعدنا جميعا بالأغنية. وما إن انتهت، حتى سارع بشريط لأم كلثـــوم، جبرانا لخاطر المرحوم جده، على حد قوله..تهت مـــع اللحـــن، تهت مع الكلمات، والصوت العبقرى..الشجى..تحاكى أنغامـــــها أنات القلب، بينا انطلقت هالة تعتب على ياسر:

– هلى هذا وقت مناسب لأغنية (هجرتك)؟

لذلك بأحاسيسى الداخلية، والساعة تعلن التاســـعة، فـــى تحد سافر لمشاعرى. لكن...بصيص أمل ما زال يراودنى بأنــــه سيدق جرس الباب، أو الهاتف. اتجهت أمى إلى المسجل تغلقه، دون أن تستأذن أحدا. ولعلها أقدمت على هذا لما لا حظته مــــن شرودى، والتقطيبة البادية على وجهى. كما حذرت ياسر مـــــن الاقتراب من المسجل. وخيم على البيت صمت موحش، والتزم الجميع بلغة الصمت لحظات ثقيلة، وأقبلت خالتى نحوى وجلست بجانبى، هامسة:

– ألم يرق قلبك لمدبولى؟

كدت أثور فى وجهها..تمالكت نفسى..واصلت الحديث:

– لا تغضبى منى. ما زال الرجل يلح على..

نادت على أمى كى أجلس مع أخواتى. امتثلت لطلبـــها، وجاهدت لأعالج اضطرابى. توددت إلـــى هنيـــة، صارحتـــها بحكايتى مع سامى الحسينى، فاعتبرتها حكايـــة بســـيطة جـــدا، وعادية جدا. وعملت على تطييب خاطرى، بأن التمســـت لــــه

العذر، وطمأنتنى خيرا..وحذرتنى هدى – التى أنصتت من بعيد لحديثنا – من الإغراق فى أحلام اليقظة..

– لا تجرى وراء وهم..

هرعت إلى الهاتف، أطلبه..تلعثمت الكلمات على طرف لسانى. لم أرتب ما أقول..

– كيف حال الوالدة؟

– الحمد لله..بخير..

واسترسل يحدثنى عن مرضها ومعاناتها، ولم يشر من قريب أو بعيد لعيد ميلادى، ولم يعتذر لعدم حضوره. أهناك لبس؟ لعله ظن الحفل باكر. لا..مستحيل. إنه يذكر اليوم جيدا. هنأنى فى الصباح ببطاقة رقيقة. فلماذا لم يلب دعوتى؟ ولما أنهيت المكالمة، على أمل اللقاء به فى الصباح، قال وهو يضع السماعة.

– كل سنة وأنت طيبة..

– وأنت طيب..

ووضعت السماعة وقد خفق قلبى، ازداد خفقانه. أضأت نور الشرفة، وخرجت إليها، فإذا بالعصفور الأخضر يحط على منشر الغسيل، وما إن اقتربت منه حتى طار فى السماء، هاربا منى. تألمت لطيرانه السريع المفاجئ، كأن قلبى تمرد على صدرى، وانسل من بين ضلوعى، وطار مع العصفور..

أقبلت أمى تجالسنى، وتبعتها هدى وهنية وهالة وخالتى، ثم الأولاد والأزواج. وانتقل المجلس إلى شرفتى. أخرجونى من عزلتى، فحدثتهم عن عصفورى الأخضر الصغير الذى طار فى البعيد. وأخذ غريب يحدثنا عما يعرف عن العصافير، متفاخرا بثقافته الواسعة، وسألنا:

– من يعرف سبب تسمية العصفور بهذا الاسم؟

احتار الجميع. احترت مثلهم. أعطانا فرصة كافية، ثـــم قال فى زهو:

– سمي عصفور، لأنه (عصى وفر).

ثانيا ذراعيه على هيئة جناحى عصفور وجرى بضعـــة أمتار، بطريقة أضحكتنا. وانبرت مها تبحث عن ورقـــة وقلـــم ليكتب لها هذه المعلومة بخط واضح. نجح الجميع فى إشاعة جو من الأنس والبهجة. ولما انصرفوا، عدت إلى وحدتى، أرنو إلى صورة سامي في مخيلتي. وسؤال يتردد فى خـــاطرى: لمـــاذا يتودد كل للآخر ولا يبوح بمشاعره؟ بودى لو أغير طريقتـــى، وأصارحه بحبى، هل أستطيع؟

نمت بعد أرق استمر إلى منتصف الليل. وسرعان مـــا استيقظت مرعوبة من حلم مخيف..حلمت بالعصفور الأخضـــر مذبوحا، على سور الشرفة والدماء تسيل علـــى الأرض بركـــة مخيفة، انزعجت وأنا دهشة لكل هذه الدماء. صرخـــت بـــأعلى صوتى أوقظ أمي. انتفضت تركض نحوى، تحضننـــــى، غـــير متيقنة إن كنت نائمة أو مستيقظة، للحظات، ثم سألتنى عن سبب صــــراخى، فرويت لها الحلم. سألتنى إن كنـــت رأيـــت الـــدم. فغرت فاهي، نعم، رأيت دما لأكثر من مائة عصفـــــور. لكـــن عصفورى الوحيد هو الذى رأيته مذبوحا. طمأنتنى بأن رؤيـــــة الدم يفسد تأويل الحلم. ونامت على سريرى تحضـــــن جســـدى المرهق.

مرت أيام عديدة، لم يقربنى عملى الجديد منـــــه. نعـــم، طلبنى كثيرا، ولكن فى أمور تتعلق بعمله. وهو مـــــن الرجـــال المتفانين فى عملهم. تمر بين يدى أوراق كثيرة قبل أن تعـــرف طريقها إليه. وخطابات عديدة أكتبها كـــل يـــوم علـــى الآلـــه الكاتـــبة.وتقارير مختلفة..أصبحت مشغولة كـــل الوقـــت. ولا يتبقى وقت أقضيه نع شلة الأنس، لا شك أنهم يتقولون علىّ. لا

بهم. حاولت أن أنسى ما أحس به تجاه سامى، نظـــرا لتغـيره المفاجئ، من رجل يتودد إلى ويسأل عن أحوالى، إلى رئيـــس يرهقنى بأعمال كثيرة. لم أضجر، و لم أشك، وماهى إلا أيـــام قليلة حتى علمت بوفاة والدته.

ذهبت أنا وأمى نؤدى واجب العزاء. تراءى لى رجـــلا نادر الوجود. فقد ظل مهتما بوالدته إلى أن لبت نداء ربها. لـــم يقصر، ولم يهمل. أشهد له بهذا. ولعل انشغاله بمرضها، صرفه عن تلبية دعوتى..لم يتغيب سوى أياما ثلاثة، عاد بعدها بربطة عنق سوداء، ومسحة الحزن منطبعة على وجهه، وفى نـــبرات صوته.

فى العزاء، بدا ببدلته الزرقاء وربطة عنق سوداء، زائغ العـــينين حائر الخطى. استقبلنى فى صالة واســـعة اقتصـــرت على الرجال، وأدخلنى من دهليز إلى غرفة صغيرة، جلست فيها سيدات قليلات. تعرفت على إحداهن لكثرة حركتها كأنـــها مـــن أهل البيت، رغم أن البيت - بموت أمه - أصبح قفرا. يبدو أنها إحـــدى قريباته. وولج الغرفـــة يرحـــب بالمعزيـــات ورأســـه مطأطئة، بانكسار الحزن فى عينيه المنتفختين، ولم تفلح نظارته السميكة فى اخفاء حلقتى السواد حول عينيه. همس فى أذنى:

- البركة فيك، فى القيام بواجب مع السيدات..

- البركة فى قريبتك..

دهش وهو يقول:

- أنا مقطوع من شجرة..

- هذه..

وأشرت إليها.

- إنها جارتى.

وصحح بذلك خطأ وقعت فيه. استرددت ثقتى بنفســـى. وقادنى إلى المطبخ أعد صينية القهوة السادة، شئ محبب إلـــى

نفسى أن أكون من أهله، وإن كانت المناسبة حزينة. ولكن.. أين هم الأهل؟ إنه وحيد فى بيت واسع. وبرغم الأثاث الفخـــم، إلا أنى تمثلته فى وحدته كمن ضل طريقه فى صحـــراء مجدبــة. انشغل كثيرا بمرض والدته، والآن..لا شك أن وحدته القاســـية ستجعل فكرة الزواج حتمية وضرورية..وسأكون أقرب فتاة إلى قلبه. أحس بهذا. متأكدة أنا من صدق إحساسى.

تعمدت دخول مكتبه مرارا، بحكــم عملــى، وتعمــدت محادثته كثيرا، وإطالة الحديث، سائلة عن أحواله مثلمــا كــان يسأل عن أحوالى بعد فسخ الخطوبة. لاشك أن موت والدته قــد ترك فراغا فى حياته. وفوجئت به يطلبنى، فأهرع إليه. طلــب منى الجلوس، فأجلس وقلبى يدق دقات متلاحقة. ســألنى عــن أحــوالى، فأتحدث إليه وقد طار قلبـــى مـــن الســعادة. لكنــه يصدمنى فجأة، وهو يخلع النظارة ليريح عينيه، بأنه أعــد كــل شئ، وجهز أوراقه، ليهاجر إلى كندا..صعقت..

– تهاجر..أمعقول هذا؟

ولما أحس بوقع الخبر الثقيل على، صرفنى لموضـــوع آخر، سأل:

– ألم يعاود مدبولى الاتصال بك..

انتفض جسمى كله. تماسكت قليلا. قلت برباطة جأش:

– مدبولى..انتهى من حياتى تماما..

صمت قليلا ثم قال:

– أتمنى لك التوفيق.

وهاجر سامى. ترك مصر. قال لـــى قبــل أن يســافر بساعات قليلة:

– بعد موتها، لا أجد مبررا للحياة فى مصر..

واسترسل يحدثنى عن معاناته الوظيفيـــــة، لأول مـــرة أسمع منه شكواه، ولعلها حجة يتذرع بها. وسافر هاربـــا مـــن حظه التعس. حلق بالطائرة فى السماء البعيدة.

تربع على كرسيه مدير جديد، فررفى أول يوم له إعادة منير إلى عمله، وإعادتى إلى عملى. رجعت إلى شلـــة الأنـــس أنيسة وفوقية وسعاد، وأحاديثهن التى لا تنتهى، والإشاعات التى يروجن لها. ولم يرحمنى محسن من لسانه السليط، إذ قال فـــى شماتة:

– ما طار طير وارتفع، إلا كما طار وقع..

وأشهد لشلة الأنس أنهن لم يعلقن، كأنهن يستنكرن مـــا قال. وعلقت أمى بأن الحلم قد فسر! العصفور الأخضـــر كـــان يشاغلنى دائما. لكننى فشلت تماما فى الإمساك به، واستطاب له الطيران فى السماء الطليقة اتجهت ناحية باب الشرفة. تراجعت عن فتحه. نظرت من خلل خصاص الباب، إلـــى عصفـــورى الأخضر الواقف على سور الشرفة. رنوت إليـــه محـــاذرة أن أحدث صوتا ما، حتى لا يطير. سخرت من نفسى، فـــالعصفور لا يقوى على البقاء مقيما بسور الشرفة. حتما سيطير، فى لحظة ما..فىالفضاء سيطير. وعدت إلى فراشى البارد، أرتمى فوقه. أضـــم الوسادة القطنية إلى قلبى المعنى، وأبكى طويـــلاً. ومـــا أفقت إلا فى الصباح، أيقظنى صياح العصافير..عشرات، بـــل مئات منها ينطلقن فى السماء، وخفقات قلبى تزداد مـــع عينـــى المحدقتين فى أفق بعيد. وانتابتنى حيرة مـــن طيرانـــها. لســـت أدرى هل أفرح لتحليقها فى الأجواء البعيدة فرحة منتشيـــة، أم أحزن لأن كلا منها ترك سور شرفته، أو عشه علـــى غصـــن شجرة، وخلف به حزنا مقيما؟!

حس البيت

البيت خال.

صمت مطبق. أكاد أختنق. تكاد الجدران تطبق على صدرى. والأثاث..يكاد ينطق ساخرا منى. أدير المذياع ثم أغلقه. أتودد إلى (التليفزيون)، ثم أتململ سريعا. أدير شريط (فيديو)، وأدع الفيلم يثير صخبا وجلبه. أستعير الممثلين والممثلات ليحدثوا الحركة والأنفاس. أنصرف من أمام (التليفزيون)، خارجا إلى الشرفة، أطل منها على الشارع الواسع العريض. الكل لاه منصرف عنى..

أطفئ الجهازين وأتمدد على الفراش..وأعود أفكر فيها..

لماذا أغضبتها؟

اشتعل البيت، فجأة، وهاجت مشاعرى. انفلتت كلمات من لسانى، ما كان ينبغي أن تقال. وفى صمت، دست ثيابها فى حقيبة وانصرفت غاضبة. جمود انتابنى. لم أعرها انتباها. ركبنى العناد. ها هى تترك البيت، وعلى أن أعبد ترتيبه. خمس سنوات مضت على زواجى منها. نحن مختلفان. أفكارنا ليست واحدة. أمي سألتنى عن الولد. لماذا لا تنجبان؟ كلما حادثت سلوى كى تذهب إلى طبيب، ترفض وتحتد و تثق بنفسها. ما كنت أحب أن أثير وجيعتها. لكنها بمزاجها المنحرف جعلتنى ضجر من حياتى. وشيئا فشيئا، لم أعد أطيقها. هى لم تساعدنى

على إيجاد حل. وتنامى لدى إحساس بأنها لا تكترث، وتدعنـــى تناوشني الهواجس. هى إذن لا تحبنى..

أحاول شغل نفسى بالعمل وقتا إضافيـــا، لأعــود فـــى المساء مهدود القوى. أحكم رتاج البيت وأنام. لكـــن النـــوم لا يزور أجفاني. قلق دائما. أتقلب على الفراش كمن يتقلب علـــى حديد ساخن. تحولت المرتبة القطنية إلى سطح حديـــدى يكســـر ضلوعى، ويرهق بدنى كله! أتقلب على كل ناحية، ثم أنـــهض كمن لسعته النار. أهرول إلى كرسى، ثم أنهض ســـريعا. دوار برأسى. أتناول قرص (أسبرين) وقدح شاى. أحاول أن أستريح. تناولت كتابا. بدأت القراءة ولا تركيز فى سطر واحد. متعـــب أنا..

ارتديت ثيابى وخرجت إلى الشارع على غـــير هـــدى، شارد الفكر أحيانا، متأملا السابلة أحيانا أخرى.

وفى محاولة لكسر الصمت الـــذى يطوقنـــى، اتجـــهت بعربتى إلى أختى، التى تسكن فى حلوان، حاملا معـــى هدايـــا لأولادها. رحبت بى وفرح الأولاد، الذين التفوا حولـــى كعقـــد الياسمين، وســـهرت حتـــى منتصـــف الليـــل. كلمـــا حـــاولت الانصراف، شدنى الأولاد، مصرين على مجالستهم..

قال أكبرهم:

–نحن لم نرك من سنة يا خالى..

وذهب أصغرهم يحكم رتـــاج البـــاب ليمنعنـــى مـــن الانصراف. وأختى وزوجها يتناوبان الحديث مهى. لكن كلمات أختى أصابت جرحا فى قلبى:

– لماذا لا تتزوج غيرها؟

– أفكر..

عدت إلى البيت، وأنا أفكر في تغيير حالتي. أنــت لــم تطلقها. وإذا تزوجت أخرى، ستصبح زوجا لا ثنتين. أمعقــول أن تعيش بهذه الصورة؟ تريث، وخطط لحياتك من جديد!

سلوى تركت البيت منذ ثلاثة شهور. لا حس ولا خــبر. الموقف غامض. هل باعتك؟ لكنك أغضبتها..أوه..صداع يحفر أخدودا عميقا برأسي.

تشاغلني بثينة بضحكتها المجلجلة وابتسامتها المرحــة. مكتبها ملاصق لمكتبي. أحاديثها الحلوة جعلتني مشدودا إليــها بخيط رقيق. أكاد أتبعها كظلها، مختلقا الأسباب كي أجالســـها، وأستمرئ حديثها الحلو في كل شئ. فجعلت وقت العمل ساعات حلوة تنقضي بسرعة. وعندما يحين موعد الانصــراف، أعــود إلى وحدتي وصمتي. وكثيرا ما فكرت..ماذا لو تزوجت بثينــة، وانتقل هذا المرح إلى جو البيت؟

عرضت الفكرة على أمي. صمتت ولم تعلــق. تظنــها نزوة عابرة. تراجعت..تركت للأيام تدبير الأمور، ولــم أفــاتح بثينة في أي موضوع. لا أنكر ما أصابني مــن تــردد. كلمــا حاولت أن أشير إلى الزواج من قريب أو بعيد، تموت الكلمــات قبل أن ينطقها اللسان. مرة تجــرأت وحدثتــها عــن ســلوى وتصرفاتها، وعن تركها البيت غاضبة، فما كــان منــها إلا أن بادرتني:

– أعطني عنوان والدتها..ســأذهب لأنــهي الخصــام بينكما..

ولم أعطها عنوانا. واعتبرت مبادرتها مجاملة لطيفــة، وعدنا إلى أحاديثنا العابرة، بما تثيره من بهجة وتسلية.

وأفكر بيني وبين نفسي. لعلــها جــادة فــي كلامــها، لكن..لست إلى هذا أقصد. أريد بثينة زوجة لي كيف البســيل؟ أمي لا تشجعني ويضايقني صمتها. لعلها تراني متسرعا. هي لا

ترحب بزواج جديد، ولا تعرض على صلحا مع سلوى. لكنى لم أفاتحها فى غضب زوجتى. ولعلها لم تشأ التدخـــل فـــى أمـــر يخصنى أو أنها تعطينى فرصة للتريث والتأنى.

الفراش الخالي يضنيني. لا أنيس ولا جليس. نمت وقت الظهيرة، نومة قصيرة، صحوت بعدها، وكأن سلوى – فى ذات اللحظة – تدخل الغرفة وفى يدها – كعادتها – صينية الشـــاى. تألمت كثيرا..فالبيت ينقصه حس الزوجة..فهل تســتطيع بثينـــة ملء الفراغ؟

مرضت بثينة. نزلة برد ألمت بها. انتهزتـــها فرصـــة وذهبت أعودها، ومعى علبة ملبس. رحبت أمـــها، وجالســتنى. وطفقت بثينة تحكى أعراض البرد، محذرة إياى من العـــدوى. وحرصت على أن يكون مجلسها على كرسى يبعد عنى بحوالى مترين، لكننا اقتربنا بحبال المودة والكلمات اللطيفة. قالت:

– خذ حذرك..

وعطست مرات متتالية، بينا الأم تشكو لى مـــن تهاونـــها فـــى صحتها. وانقضت على زيارتى ساعة كاملة اســتأذنت بعدهـــا، وكلى أمل فى أن تكون زيارتى بداية علاقة تربطنـــى بالفتـــاة المرحة. وأتخيلها تملأ بيتى مرحا وسعادة.

البيت خال.

لا حس ولا حركة.

البيت الخالى ينتظرك يـــا بثينـــة، زوجـــة تعطرينـــه بابتسامتك التى تزين وجهك على الدوام، فيفتر الثغر عن أسنان ضاحكة، وتتقافز على الوجنتين الحمراوين غمازتـــان يزيـــدان الوجه نورا وبشرا.

فاتحت أمى فأنبتنى..

– أتريد أن تكون زوجا لا ثنتين؟

– أطلق سلوى..

– تريث يا ولدى..
فكرت فى تطليقها. ذهبت إلى المأذون أستشيره، فطلب منى التريث. و فاتحت صديقا أستنير برأيه، فلم أظفر بإجابة مريحة. حتى أختى التى اقترحت على الزواج، تراجعت وتضامنت مع الجميع. الكل يتآمر ضدى. الكل لا يريدنى أن أفرح. أترانى تسرعت حين تزوجتها؟ لماذا لم يطلبوا منى، وقتئذ، التريث؟ لماذا ينسجون الآن ثوب الحكمة، يدثرون به حياتى؟ وأظل صامتا، جامدا، وبثينة لا تنى تنثر عطرها من حولى كل صباح. يغازلنى مرحها، يكاد قلبى يتطاير فرحا. لكنى حين أهم بمكاشفتها بأحاسيسى، يجبن لسانى وتنتحر الكلمات على طرفه، فأتدثر بوشاح الصمت.
جلست وحدى أحرق أنفاس المساء بلفافات التبغ، ومن وقت لآخر أعد قهوة أو شايا. استعذبت صمت البيت. لم أشأ إدارة المذياع أو التليفزيون. توقعت مجيئها. هاجس خفىّ أكد لى أنها ستعود. ويبدو أن كل من حولى يعرفون ذلك، لهذا يؤثرون السلامة ويطلبون منى التروى، والتجمل بوشاح الحكمة. يتلاشى طيف بثينة من خاطرى. يا الله لهذا التحول..الآن أرنو إلى سلوى الغائبة. إنها غائبة عن البيت، لكنها حاضرة ماثلة فى خاطرى، تشاركنى وحدتى، تقاسمنى عيشى. لحظات ممتعة عشتها مع الوهم الذى خيل لى لهفتها على لقائى. إنها الآن تجمع حا جياتها فى نفس الحقيبة، وتترك أبويها اللذين يلتقطان الأنفاس، فرحين لتحولها..ولا ينسى الأب المحنك أن يقول لابنته:
– أنت تركت البيت فى لحظة انفعال، وعليك أن تعودى إليه دون تدخل من أحد.
وتحضنها الأم، تربت على ظهرها، تغمر وجهها بالقبلات. إنها الآن، حتما تنتظر سيارة أجرة. لا، هى مترددة. تعود إلى بيت

أبويها. هي تحث أباها كي يطلبني على الهاتف لأحضر بسيارتي. انتظر قليلا..سيجلجل الهاتف برنينه، إشعارا واضحا بعودة الزوجة. أنتظر..يطول انتظاري..الانتظار قاتل..أحرق المزيد من لفافات التبغ..الصمت مطبق..هواء البيت رطب..بارد..رغم السخونة التي أحس بها في دمي وجوفي.

دقات المنبه حادة، مقلقة..ما هي إلا لحظات ويدق جرس الهاتف. دقات المنبه تغيظني، تتحداني..كأنها تعلن فشلي في توقعاتي. تمتد يدي إلى المذياع لأتغلب على حدة الدقات، أشبه بلكمات تسدد إلى صدري. يتناهى إلى سمعي صوت المذيع يحمل إلى أنباء الدنيا، كوارثها وهمومها، وضحايا تسقط في كل مكان. لحظات ويرن الجرس، أجري إلى الهاتف، ارفع السماعة، أكتشف أن الجرس للمنبه إشعارا بالوقت..الساعة الآن الثامنة مساء حددت الوقت في الصباح لأخرج، لكني ألغيت مواعيدي كلها. المنبه يجور على صمتي..يستفز مشاعري..أخرس الصوت بضغطة على الزر، وأغلق المذياع..يعود إلى البيت هدوءه القاتل، ودقات المنبه لا تني تتحداني، ومن جديد، يرن الجرس. لم أنهض من مكاني إلا بعد أن تأكد لي أن الرنين للهاتف. فنهضت في قفزة واحدة. يدق قلبي دقات فرح لا أستطيع كتمانها. رفعت السماعة ثم وضعتها في حسرة..النمرة غلط. وعدت أعالج توتري بلفافة تبغ أخرى.

وعاد الوهم يشاغلني من جديد، بأن سلوى قد ترددت ولم تذهب إلى أبويها، فرجعت إلى الشارع تنتظر سيارة أجرة.

فلأنتظر. ساعة كاملة أنتظر. هي في الطريق إلى بيتها. إشارات المرور قد تعطل السيارة. وشخصت إلى المنبه أستحلفه أن يدق دقاته بسرعة. الدقات لها معنى خاص. إنها تعني وقت انتظار. حتما سيدق جرس الباب، فأفتحه على مصراعيه،

أتناول منها الحقيبة، وأعانقها، فرحا متهللا. جرس الباب سيدق بعد ربع ساعة. أربع عشرة دقيقة، عشر دقائق، خمس، دقيقتين، دقيقة واحدة، الآن يدق..وما سمعت أذناى غير دقات المنبه. لأنتظر دقائق أخرى. أجرى إلى الباب حين أسمع الرنين. أفتحه فى لهفة، فإذا بأحد الجيران يقصد شقته المجاورة. أحييه فى اقتضاب وأعود إلى دنياى الصامتة.

أغلق الباب. أحكم رتاجه، كأنها راقدة على فراشها، تناديني من الغرفة البعيدة..

– أضئ اللمبة السهارى، وأطفئ نور الصالة.

أنقاد، مؤتمرا بالصوت. أخطو إلى الغرفة، أرتمى على الفراش، وقد تهيأت للنوم، كأن سلوى راقدة بجانبى. أرنو إلى الفراش الخالى، وإلى الطيف الذى يملأ دنياى. لماذا لا تعودين يا سلوى؟ يظل الصوت يردد السؤال، صوت بداخلى يسأل فى حيرة، كأنه يناجيها: لماذا لا تعودين؟ يحسم الصوت حيرته، فيجيبنى فى حسم: البيت الذى يخلو من المرأة، لا يصلح لسكنى رجل.

أغفو، وأطياف حلم تشاغلنى، كعرائس المنى، وأجد بثينة تضاحكنى وتداعبنى. فى الحلم كانت بثينة هى الزوجة والحبيبة، ومن حولنا أولاد يمرحون، يملأون البيت ضجيجا. الحلم أمنية غائبة. أفيق من الحلم، مكتئبا، ووحيدا. أتقلب على الفراش..بثينة ليست زوجتى، وسلوى غائبة عن البيت. والأولاد!. أمنية بعيدة المنال. وليس فى الواقع سوى جدران البيت الصماء. أستنطق أجهزة البث والتسجيل الصوتى والمرئى، ثم لا ألبث أن أثور ضدها، أفضل الصمت القاتل على الجلبة المصنوعة. أتوق إلى حس البيت، أنفاس المرأة، رحيقها، عطرها.

وفى الصباح، أتوجه إلى عملى، فـــألتقى ببثينــــة التـــى تصدمنى بخطوبتها أمس، فى حفـــل عـــائلى محـــدود. أبـــارك الخطوبة، سائلا عن سعيد الحظ، تجيبنى:

-محفوظ..

أردد مداعبا:

-محظوظ..

أفرح من كل قلبى خطوبتها أراحتنى وحسمت الموقف. لا تفكير فى بثينة بعد الآن. وعلى أن أقطع خيوط الوهم التـــى أنسجها. هل تعود سلوى إلى بيتها؟ لا..لابد أن تعود. انتفضـــت من على كرسيي، واستأذنت خارجا، ميمما وجهى شطر بيـــت حماى، وطفقت أفكر فى كلمات اعتذار أواجـــه بـــها الموقـــف، حقا..لابد من ترتيب كلمات اعتذار، حـــلا للمشكلـــة، وأعـــود بزوجتى..

تسمرت عند الباب، منتظرا فتحه، وأنا واقف على أحر من الجمر، وعندما فتح الباب، أذهلتنى المفاجأة، إذ ألفيت سلوى تهيأت للخروج وقد حزمت أمتعتها فى الحقيبة. سألتها:

– إلى أين؟

– إلى بيتى..

وكنت أتوقع الجـــواب. احتضنتـــها، غـــامرا وجهـــها بالقبلات. ولم أعطل وقتا أحيى فيه أبويها، مكتفيا بتلويحة بيدى، مبتسما ابتسامة عريضة، وقد أحطت كتفها بذراعـــى اليســـرى، حاملا فى اليمنى حقيبتها الكبيرة. وفى الطريق إلـــى البيـــت، حرصت أن تغمرنى بفرحة ثانية،فالطبيب قد بشرها، بـــالأمس، أنها حامل.

الأثر الباقي

ثارت عروسه ثورة عارمة. أمسكت بمنديـــل صغـــير مكرمش، ورفعت عقيرتها. إنه يخونها مع امرأة أخرى. واجـــه غضبها المحتد بصمت حائر. ليته يعرف شيئا عن هذا المنديل، ليتـــه يعرف اليد التي دسته بين أوراقه وكتبـــــه. منـــذ ثلاثـــة شهور،، كان حفل زفافه على أسماء. وقبيل ليلة الزفاف، جمـــع أوراقه وكتبه كيفما اتفق داخل حقيبة جلد صغيرة، وترك الحقيبة بمنزل والده، ولم يحفل بها، حتى تذكرها هذه الأيام، فأتى بـــها إلى بيته. لم يفتحها، تكاسلا ولا مبالاة، ولم يشعر قط بحاجته لما بداخلها، فأهمل أمرها حتى تذكرتها أسماء ففتحتـــها، وأعـــادت ترتـــيب محتوياتها، فعثرت على هـــذا المنديـــل الـــذى أثـــار حفيظتها، وكان بمثابة عود ثقاب أشعل حريقا فى دمائها خيـــم صمت طويل على طلعت، فزادت ثورتها:

– تغيظني بصمتك.

– ماذا أقول؟

– لا شئ.. لاتقل شيئا..بأى حق ستتكلم؟ منديل حريمي بحقيبتك، يا سلام.طبعا أنت لا تستعمل هذه المناديل، وليست لك أخوات، وأمك ماتت منذ سنين

قال ضاحكا بمرحه المعهود:

– يعنى اكتملت عناصر الجريمة.

– أنت كثير التهكم.

تبكى.. تغرق فى البكاء..ثم تنظر إليه فى حنق..

– قل الحقيقة.

– نعم..سأقولها، عندما أعرفها.

– مرة أخرى تتهكم.

– لست أتهكم. كيف تطلبين منى التحدث عن شــــئ لا أعرفه؟

– هذا المنديل.

– قطعة قماش متربة..تافهة..

– لماذا إذن تحتفظ بها؟ ما لم تكن ذكرى مـــن حبيبـــة القلب.

– لا أذكر شيئا.

– سأموت كمدا، بسببك. تتلاعم على. إحســـاس خفـــى يؤكد لى أنك لا تحبنى. مجرد فتاة طلبـــت يدهـــا لتتزوجـــها وتعاشرها عن غير حب.

– كيف؟

– لأن قلبك مشغول بامرأة أخرى

– ومن جديد، تبكى بكاء مرا. أعادت فـــرز محتويـــات الحقيبة..

– حتما سأجد دليلا آخر على خيانتك.

جلس بجانبها يرقب عملية الفرز. تعبـــث يـــد أســـماء بالمحتويات، بالكتب التى أهملها منذ ترك الكليـــة، وبمذكراتـــه الدراسية، وبأوراقه التى لا تعدو أن تكون إيصالات أو فواتـــير أو روشتات وما إلى ذلك..كلها محتويات جمعها كيفما وجد شيئا أمامه، دون فحص، ولو تأمل ما ملأ به الحقيبة، لتخلـــص مـــن ثلاثة أرباع ما جمع، لكنه الكسل داؤه اللعين..إن حشو الحقيبـــة أسهل من الفرز والتدقيق. ولما وجدها شديدة الاهتمام، ساعدها

فى الفرز الدقيق. وحين سقطت منها ورقة دون فحص، تناولها وبسطها أمامها..

– هذه الورقة لم تريها.

نظرت إلى الورقة،وقالت فى ضيق:

– أنت تغيظنى.

– أنا أساعدك.

لم تجد شيئا ذا بال، فنهضت، وألقــت بجســمها علــى الفراش وقالت:

– لابد أن ننفصل يا طلعت!

– هكذا، مرة واحدة.

– أنت جرحت كرامتى.

– بهذا المنديل؟

– وتنكر قصته.

– طيب، دعينى أتذكر قصته.

– ألدعك تؤلف قصة حول المنديل؟

– أنت قاسية جدا.

– طيب، ما اسمها؟

– من هى؟

– حتى اسمها، تنكره.

وتأهبت للخروج، تاركة البيت، بينمـــا طلعــت يجــهد ذاكرته ليذكر شيئا من أمر هذا المنديل. وراوده خــــاطر بــأن المنديل أشبه بقطعة مخدرات، دسها حاقد فى حقيبته، للوقيعـــة بينه وبين زوجته. ضحك لهذا الخاطر. كيف ينقلب منديل مترب لا قيمة له، فيضير قطعة مخدرات تجلب له المشاكل؟ ولما رأته يضحك، قالت:

– طبعا هذا ما تريده..أن أترك البيت.

ولما ألفى مشكلته تستفحل، حاول تهدئتـــها..حـــاول أن يتذكر قصة هذا المنديل، اللغز المحير. إنه لم ينشئ أية علاقـــة غرامية مع فتاة. قد يخالط الفتيات، لكنه لـــم يصـــب بتبـــاريح الهوى، ولم يكتب رسالة حب، كما لم تصله أية رسائل غرامية. سأل زوجته:

– هل تعتقدين أن المنديل هدية مناسبة؟

– لا..

– وإذا ما أرادت فتاة أن تهديني منديلا، بصرف النظر عن أن المنديل فأل سيئ يشير إلى الفراق والوداع، افرضـــي أن فتـــاة أهدتني منديلا، فلابد أن يكون منديلا يخص الرجل.

– لا تدخلني في متاهات..لو تقول لي قصة المنديل...

– إذن ، اجلسي..واهدئي..وسأحكي لك القصة..

ليست لديه إجابة حاضرة. غرق في الصمـــت. أجـــهد الذاكرة، عساه يعرف قصة المنديل لها الحق فـــي أن تغضـــب. ولكن لابد أن يكون منديلها.

ربما زار مصطفى ذات يوم، ومعه جريدة. ربما تناولت بدرية الجريدة لتقرأها، ثم وضعتها على النضد دون أن تنظـــم صفحاتها، كما هي عادتها. وربما نست منديلـــها بيـــن طيـــات الجريدة، وفي آخر السهرة ينهض حاملا جريدته دون أن يتنبـــه لشيء..ثم..تراكمت أتربة النسيان فوق الجريدة، وفـــي الذاكـــرة. ربما شئ كهذا قد حدث..ها ها..إنه نسج خيوط قصة منطقية!

قال لأسماء:

– أريني المنديل.

– اشتقت لحبيبتك طبعا.

– أرجوك..كفاك سخرية.

تأمل المنديل. وتذكر أن بدرية تحب هذا النـــوع. ومـــا أكثر حبات العرق التي تتفصد من جبينها، فتمتد يدها البيضـــاء

الرخصة لتمسحها بالمنديل. نعم، منديل كهذا، يخص بدرية. وما يؤكد ظنه، تلك الطيات التى تجعله على شكل مثلث، فبدرية تغرم بطي مناديلها بهذا الشكل.

قال بلهجة قاطعة:

– إنه منديل بدرية.

– ومن تكون بدرية؟

لا حقته بأسئلتها، عن جمال بدرية، عن تعلقه بها..وعجبت لحاله، إذ لم يقترن بها!

– ربما تعثرين بين أوراقى على رسالة أو اثنتين، من رسائل مصطفى..وربما تقرئين اسمها فى رسائله.

– طبعا..طبعا..

صمتت قليلا، كأنها تعيد ترتيب أمورها، ثم قالت:

– قلت لى نصف الحقيقة، أما النصف الباقى فما زلت تؤثر كتمانه.

– ألابد من وجود قصة حب بينى وبين بدرية؟!

– أتتكر؟

– أفكر الآن فى مصطفى. أشعر بحنين جارف. لماذا ألهتنى الدنيا عن الاتصال به؟

وطفق يحنو على زوجته، ويطمئنها إلى أنه اختارها زوجة وحبيبة، فلانت عريكتها، وتنازلت عن إصرارها على ترك البيت.

راودته أفكار مقلقة، حول زميل الدراسة، وخله القديم، مصطفى، وأخته بدرية. لم يحبها هذا الحب الذى استثار زوجته، إنما اعتبرها أختا، بعد أن حرمه الزمان من الأخت، أختا مرحة مثله، لها من الطباع ما يشبه طباعه.

راودته فكرة..لماذا لا يزور مصطفى،فيقف علي أخباره، ويطمئن علي أحواله. وربما يرى بدرية. إنه لا ينكر

هذا الحنين الذى يدفعه لرؤيتها. ما الضير في أن تتعرف عليها زوجته، وتعتبرها صديقة لها؟ لم يفكر قط في الزواج منـــها، أو مبادلتها آيات الإعجاب والغرام.شيء دفين قد ينمو في السرائر! عاطفة مشبوبة قد تنشأ بين قلبين، بحيث يظل كل منهما مشدودا للآخر. هذا الشيء قد لا يكون عشقا جسديا. هــذا الشـــيء قــد نسميه صداقه، حيث الصدق والبراءة والعفوية توطـــد عراهـــا، فتنمو أصلب عودا وأشد مراسا علي مجابهة الحياة.

لأول مرة يشرد، فتضنيه خواطر وهواجس، رأى مـــن الجنون مصارحة أسماء بها، فطواها بين جوارحه، وإن ظلـــت تؤرقه.

•••••••

زار مصطفي..

استقبلته الأم المسنة، وقد التف جسمها بثوب أسود.

– مصطفي يعمل بالعراق، كما تعلم.

رشف قدح الشاى وقد اتشح باكتئاب مفاجيء.يعج البيت بالسكينة والهدوء. ترتسم في مخيلته ظلال شاحبة، لا يدرى لها سببا. لكن البيت – الذى كان يزوره منذ سنوات غير بعيدة – قد اكتسي بالكآبة الخرساء..

– اعذر مصطفي يا ابني..لم يأت مصر سوى مرتيـــن، كانت الأخيرة منذ ستة شهور حين علم بوفاة أخته.

– وفاة أخته؟...

– لها الجنة..

أصابه وجوم قاتل. انعقدت سحابة الدموع في عينيه..

– تقصدين من ؟

– تعلم أنه كانت لي ابنة واحدة.

ود لو تقول شيئا غير الحقيقة، لكن..ما كان قد كـــان..
هطلت الدموع من عينيه ومادت الأرض من تحت قدميه. أحس كأن عاصفة عاتية تقتلعه من مكانه. كلمات عزاء يجب قولـــها، خانتــه الكلمات. نهض واقفا، واستأذن مرتبكـــا..وعنــد بـــاب الشقة، التفت إلي الأم الوقور، وواساها، بكلمات أدمت قلبه.

***

عندما فتحت زوجته الباب، قال لها:

– بدرية ماتت!

انخلع قلبها..كأنها تعرف بدرية.

– كيف؟

ولم يجب..

– ماذا تقول؟

ولم يجب..

إعياء تام. استلقى علي السرير حطـــام جســـد. أخـــذت أسماء تخفف أحزانه، وقد نست تماما ما أغضبها..

– أرجو ألا تغضب مني.

ولم يجب..

– من الحماقة أن تثور المرأة بلا مبرر.

ولم يجب..

– العجيب أنك قضيت ثلاث سنوات منقطع الصلة عـــن مصطفي.

– ولم يجب.

– يجب أن تعزى مصطفي.

ولم يجب..

شيء غائر سحيق أنساه عالمه.

وتذكر الضحكات البريئة، والمرح الطفولي...

بدت له بدرية كنجمة سطعت في سماء حياته، ثم هوت!..
أمسك بالمنديل – منديلها – المكرمش المترب. وقال لأسماء:
– آه لو كنت رأيت بدرية، كنت ستحبينها. من يصدق أن هذا المنديل هو الأثر الباقي منها؟!..
وضعت راحة يدها على جبينه المعروق. أكمل:
– أما صاحبته، فقد راحت في التراب.
قال ساخرا:
– العجيب أني لا أحب الاحتفاظ بأى شيء..تلك عادتي..وشاء هذا المنديل أن يتوارى عن عيني، مختبئا بين أوراقي ومهملاتي، ليفرض نفسه الآن، تذكارا باقيا،رغم أنفي.
طيبت أسماء خاطره، وداوت شجونه..
– لم أحب بدرية هذا الحب الجسدى المعروف في دنيانا. لكن شيئا ما...
قالت أسماء:
– لم تكن متعلقا بها طوال هذه السنين؟.. كيف تحزن كل هذا الحزن الآن؟
– الحياة ألهتني. والأيام تمر. لكن الموت، هذا الضيف الثقيل، فجر ينابيع الحزن في نفسي.
حدقت عيونهما في المنديل الأبكم الأصم الأخرس الأعمي.
وتبادلا النظرات الصامتة..
والمنديل – منديلها – قد احتضنته يداهما بحنان وحرص.

معاناة

أخطو خطواتي المترددة نحو الأربعين. انقضت سنوات عمرى، في رحلة طويلة ممتدة. كنت بين شقي الرحى، بين عملي وهوايتي. أعود كل مساء، فأتدبر أمور معيشتي. تدعوني زوجتي لأقضي السهرة مع برامج (التليفزيون)، فأمانع وأتعلل بالإرهاق..أرقد على الفراش مستسلما لنومة قصيرة، أصحو بعدها لأكتب وأقرأ..

– ماذا أفدت؟

سؤال حاضر على لسان زوجتي..أجيبها:

– دنياى خضراء، وعالمي بهيج..أحلام ورؤى، وعرائس كحوريات الجنة..

لا تعبأ بكلماتي.

تغمرني الفرحة حين أنشر قصة. لا يشاركني الفرحة سوى صديق العمر، الذى لا زمني كظلي، ولازمته كظله. زوجتي لا تعبأ بما أكتب..وحين أعاتبها، تتعلل:

– شغل البيت وتعب الأولاد..كما ترى، مشغولة دائما.

لك الله أيها الطفل البرئ..أيها الصوت الصارخ في البرية..أيها الحب المتمرد بين ضلوعي..عشرون عاما، بل أكثر..رحلة عمر قضيتها مع القلم. لم أصل إلى مستوى الشهرة. ولست بباحث عن شهرة أو مال. يكفيني أن أعبر عن نفسي..وأن

أكون ضمير الإنسان الكامن في ذواتنا..إنساننا ضائع في زحام الرغبات والنوازع. ماذا لو خرست كل الأصوات وعلا صوت الأديب؟ وهل يمكننا اسكات هدير المدافع؟

منذ عام، أقدمت على تجربة، خضتها متحمسا، وخرجت منها مقهور الأماني..طبعت كتابا على نفقتي. غامرت. دفعت به إلى دار نشر. غلاف ملون جذاب. حجم الكتاب يقارب حجم المجلة. تجربة خضتها، ولم أندم..الفكهاني الذى بشارعنا طلب نسخة. قال لي:

– قصصك أعجبتني..

وإن كان لا يعجبه تقهقر الإنسان أو هزيمته. أجبته:

– هكذا الحياة..لا ترضينا في كل الأحوال.

الناس يترددون على الفكهاني أكثر من ترددهم على بائع الكتب. يغرم المرء بالأكلة الشهية، واللعبة المضحكة، والنزوة العرضة. ينشغل الناس وينسجمون بالممتع والمسلي والمثير...

صديقي نصحني بأن أعنون الكتاب بكلمة (الحب) للرواج..رفضت..

– لست بتاجر. أنا أنتصر للفكرة..ولو خسرت.

– العنوان لا يعني شيئا..نفس قصصك، بالكلمة والحرف، لن ينتقص منها شيء..فقط عنوان جذاب.

عاندت. حرصت على العنوان الذى وضعته (الإنسان والحقيقة). أراقب الفكهاني وهو يرص ثمار البرتقال والبرقوق والتفاح. يظهر الثمار الناضجة، ويخفي المعطوبة. تغطي كتب الجنس بالسلوفان الناعم الأملس. ولست بتاجر أبيع الكلمة. حين أطلت التحديق، قال لي:

– لو تركت الثمار بدون رص، لن يشترى مني احد. يسترشد الزبون بمن يقنعه ويستميله.

– حين يرجع إلى البيت، يكتشف الخدعة..
– لم أخسر زبونا واحدا. يعرف أن الثمار ليست كلها كما يشتهي..لكنه يغرم بالشكل الجميل، بالواجهة..
وطرأت فكرة..
– ماذا لو أضفت إلى بيع الفاكهة، سلعة أخرى؟
– أنا فكهاني..يعني تاجر متخصص.
– اسمع كلامي للنهاية.
– تفضل.
– ماذا لو عرضت نسخ كتابي بطريقتك الخاصة؟ لن تتكلف شيئا.
– أبيع كتبا؟
وعقدت الدهشة ما بين حاجبيه.
– جرب..
– للكتب ناسها.
– لن تخسر شيئا. بع بالثمن الذى يعجبك، ولك نصفه.
شرد قليلا، لعله يفكر في الصفقة..
– لن تتكلف شيئا، سوى عرض الكتاب.
– أوافق، لأجل خاطرك..

استلم الألف وخمسمائة نسخة، ففرحت زوجتي، بعد أن ضايقها تكدس النسخ بما تجلبه من أتربة. أصبح شعبان صديقا لي.

حين استلم النسخ، أجلسني إلى جواره..تصفح الكتاب مزهوا بجلوسه مع صاحب هذه القصص. وتودد إلي بحلو الكلام، ثم قال:
– أحكي لك قصة حياتي، واكتبها بأسلوبك..
– هل أكتب قصة حياتك ياعم شعبان؟
– كلها موعظة ومفيدة للناس.

أتى صبي المقهى المجاور بفنجاني قهوة. أصخت السمع لعم شعبان، وهو ذاهل عما حوله، يستعيد الأحداث الهامة في حياته، لكنه لا يفتأ في الخوض في تفاصيل تعد من لغو الكلام. ماذا أكتب؟

أحسست به يريد أن ينشر على الناس صفحة حياته، واضحة وبسيطة، ليشتهر ويردد الناس اسمه وازاء إلحاحه، التزمن الصمت ولم أعده بشيء. يبدو أنه أحس براحة، كأنه يحرك غطاء الماعون الضاغط. قد تحل مشاكل الناس إذا استمعنا إلى أصحابها. المرء في حاجة لمن يستمع إليه..مثل هذه الحالة مربها عم شعبان الفكهاني.وأعتقد أن سرده لحياته التي قضاها بالطول والعرض – على حد تعبيره – قد أزاح عبئا ثقيلا من نفسه.

أشرت إلى النسخ المتراصة، وسألت:

– كيف ستعرض كتابي؟

نهض على الفور، وأخذ يرص النسخ بين أقفاص البرقوق والتفاح والموز والبرتقال.

– أفضل عرض كتبي في ركن مستقل..فهذه فاكهة، وهذه كتب.

– للفاكهة رائحة جذابة. حين ينوى الزبون شراء موز مثلا، ويلمح كتابك، ينشرح صدره، فتمتد يده إلى الكتاب.

– إذن..أكثر من النسخ المعروضة عند أقفاص التفاح..فأنا أحب التفاح.

– ليتك تأخذ اثنين كيلو.

حين نقدته الثمن، رفض مجاملا، ثم قبل. إذا نجحت التجربة، فسأبحث عن منافذ توزيع، طالما يلقى الكتاب رواجا.

أمر كل يوم على عم شعبان، وأعرف من صمته ألا جديد مضى أسبوع، ولا جديد. وسافرت إلى الخارج شهرا

كاملا، عدت بعده فينقدني عم شعبان بضعة جنيهات..أفـــهمني أنها نصيبي.. ففرحت..

- يعني النسخ بيعت؟

- كلها..

وأردف مبتسما:

- والله يا أستاذ، كتبك أرخص من الأكياس!

- كيف؟

وشرح لي كيف صنع قراطيس للفاكهة. وساعده حجـم الكتاب الذى كان كبيرا مثل حجم المجلة. فك الدبابيس، وصنـع قرطاسا من كل ورقة مزدوجة

اكتأبت..

رددت إليه الجنيهات، فأعادها..رددتها ثانية، فأعادها..وتكـرر المد والجزر. وعالج حزني بقول ساذج:

- بعد أن تلتهم الناس الفاكهـة، سـتقرأ مـاهو مكتـوب فـي القرطاس!

واسودت المرئيات أمامي..

عدت إلى البيت متثاقل الخطى. ماذا أفدت مـن الأدب؟ يمكنني فض المهزلة والاعتزال، وأعيـش حيـاتي، بـالطول والعرض- على حد قول عم شعبان - هذا أحلى من المـرارة التي في حلقي.

التقيت بزوجتي. بشت في وجهي، على غير عادتـها. أخبرتني أن بالبريد مجلة، تتضمن قصة لي وقرأت في عينيـها سطـورا مضيئة من الأفق المنشـود. مـهما كـانت وعثـاء الطريق.. والمعاناة.. ونحت الصخور..فعندى رغبة، وإصرار، ومثابرة..

وجلست إلى مكتبي، أصوغ قصة جديدة..



وطني.. حبيبي

الأستاذ عبد الواحد، تلقى صفعة آلمته. كلماته خبطت طبلة الأذن. لم يتصور بالمرة أن يتأزم الموقف. استدعاه مدير المدرسة، وناقشه في أهمية تكوين فريق فني من تلميذات موهوبات. في البداية، تحمس للفكرة. لكن حمزة الصناديلي، بوجهه المدور المشوب بحمرة خفيفة وصلعته الملساء وكرشه المتكور، استطرد يشرح الفكرة، وحاجباه الكثيفان يتحركان مع حركة شفتيه. أسقط الموقف في يده. لم يتصور أن ينبرى في تعليم البنات حركات راقصة، دون داع. أفهمه أن التذوق الموسيقي هو الأساس..النغمة الصحيحة..الإيقاع..كلمات النشيد أو الأغنية. لم يقصد معارضته، بل شرح فكرة يؤمن بها وتستقر فى وجدانه. ظن الصناديلي أنه يهاجم الفكرة من أساسها، فاحتد القول على شفتيه، وأرغى وأزبد. لم يعطه فرصة للرد. أمطره بوابل من الكلمات. ما يقال وما لا يقال. صدم. انتفض عن كرسيه مذعورا على كلماته الأخيرة:

– اعتبر اليوم..آخر يوم عمل..

ثم صمت. أنهى كلامه فهدأ..

تسمر عبد الواحد في مكانه، لحظات، ثم تمتم في أدب متناه لا يناسب سنه المتقدمة، إذا قورنت بسن المدير:

– سلام عليكم.

حياه في ارتباك، وهو يمرن ساقيه على الخطو السريع في اتجاه باب الخروج.

وغـاب عـن ناظريـه. غـادر المكتـب..غـــادر المدرسة..وعيناه تشيعان فصول البنات بنظرات ملؤها الحسـرة والشجن.

أخيرا، ألفى نفسه واقفا في الشارع، فحول ناظريه مـن جديد إلى الفصول..ثم هام على وجهه في طرقات المدينة، غير مصدق لما حدث.

اختلط بزحام الرائحين الغادين..يسير شاردا..وصعبـت عليه نفسه. كيف بك يا صناديلي تهزم الخمسة والسـتين عامـا التي عشتها؟ أنت لم تتعد الأربعين. استطعت بأموال أبيـك ان تؤسس مدرسة. لكن هيهات أن تنمي إحساسا دافئا فـي نفـوس الصغار بأفكارك المسطحة، وخلطك الأمور بعضها ببعض.

من الآن يا عبد الواحـد عليـك أن ترتـب معيشتـك، بالمعاش المتواضع الذى تتقاضاه من مكتب البريد. تقف كـل شهر في طابور طويل. لا، احرص على الذهاب مبكرا.

قصد حديقة صغيرة بوسط الميدان الكبير. عساه ينعـم بالهدوء، وينسى ما حدث. جلس على كرسي حجرى. اصطدمت قدمه بكرة. أمسك بها. التفت إلـى صاحبتـها. أقبلـت الفتـاة الصغيرة تستأذن في أخذ الكرة..ابتسم..ما أجملك؟..

– ما اسمك؟

– رشا..

– في أى سنة؟

– أولى إعدادى..

ناولها الكرة، وتبع حركاتها الرشيقة. انتشلته البنت مـن همومه. راح يتتبع حركاتها وهي تلعب مع صديقتـها. تذكـر تلميذات الفصل اللاتي في مثل سنها. كان يدربهن علـى حفـظ

نشيد (وطني حبيبي). أحبت التلميذات حصة الموسيقى. وتجاوبن مع أستاذهن. لم يكن عبد الواحد يعلمهن السلم الموسيقي والإنشاد فحسب، وإنما أخذ يشرح عنوان النشيد، وألقى على مسامعهن درسا في حب الوطن.

الحب كلمة سامية راقية. كيف يا بنات تنبت في نفوسنا كالزرع الأخضر يزين الحقول؟ وتسابقن يحاورنه في مظاهر حب الوطن..أن تزرع ياسمينة..أن تزرع البسمة في قلب شقي..أن تعتز بوطنك..أن تنظف المكان الذى تعيش فيه..أن ترتبه..أن تقرأ كتابا..أن تتعاون..أن تشارك الناس آلامهم وأفراحهم..حب الوطن يا بنات له أشكال عديدة وبسيطة..حب الوطن ينمو داخلنا بالفطرة، يفهمه المتعلم وغير المتعلم..حب الوطن يتطلب منا الإخلاص والعمل والأمانة....واستطرد يلقن الصغار درسا.

بعد قليلا عن النشيد وعن الموسيقى. ولما أيقن أن البنات استوعبن ما قال، عاد إلى النشيد..يعزف لحنه على البيانو، والبنات يرددن في حماس. انطلقت أصواتهن المتناغمة الرقيقة..عصافيرا تغرد....وطني حبيبي..الوطن الأكبر....وفي خيال كل واحدة صورة راقية للوطن.

نهض. سار في طريقه خطوة أو خطوتين. اصطدمت قدمه بكرة رشا. نظرت إليه ضاحكة.عبثت يدها بخصلة شعرها. تساوى الخصلة، وهي تراقب الكرة بقدم عبد الواحد. حركها بقدمه الواهنة، بقدر الأمتار القليلة التي تباعد بينه وبين الصغيرة. أمسكت بالكرة متصايحة مع صديقتها. ورفعت يدها محيية عبد الواحد. ينشرح صدره. يقصد بيته وصورة رشا لا تفارقه.

يدخل البيت مكسور الخاطر. تبادره زوجته، وقد فطنت لحاله من الوهلة الأولى..

- ما بك؟
كان واجما، عابس الوجه، شارد الذهن.
- لاشيء..حكاية بسيطة..
ولم تكن بسيطة عند زوجته، ولا كانت بسيطة لعبد الواحد. انزعجت قائلة، معقبة على ما رواه:
- خمس سنوات..هانت عند الصناديلي؟
تألم. حقا. هانت السنوات الخمس. منذ ترك عمله الحكومي وهو يؤدى عمله بحنكة واقتدار. هونت عليه، واعتزمت أن تحادث هذا (الصناديلي)، ابن تفيدة. والأمور عند مديحة تزنها بميزان مختلف عن عبد الواحد، بحكم انتماء الصناديلي للعائلة. فهو ابن أختها. وقد راجت مع زوج أختها أمور التجارة، وكون ثروة لا يستهان بها، من شراء وبيع السيارات المستعملة. ولعب الحظ لعبته، فقفز الرجل ليصير من أغنياء القوم، وافتتح معرضا كبيرا للسيارات الجديدة. وأشرك ابنه معه في إدارة المعرض. واغتنى الإبن بغنى الأب، ومن ثروته أنشأ المدرسة. وألحق عبد الواحد للعمل بها مدرسا للموسيقى.
آلمته مواجعه، فبث شكواه لزوجته، التي لم تفكر فيما حدث، قدر اعتقادها أن حمزة في حاجة إلى التأديب. فمهما بلغ غناه، لابد أن يعرف حجمه وسنه وعلمه المتواضع. ولم تجار زوجها فيما قاله بأن ما حدث سببه وله ابن تفيدة بكتابة الأغاني الركيكة، وفرضها عليه ليتغنى بها الصغار. وإنما أرجعت ذلك إلى أحقاد دفينة نفثت سمومها في صدر المحروس حمزة. ولم تأل جهدا، أو تعقد الأمور، بنبش الألم في الذهن كما يفعل هو. وذهبت متعجلة لتقابل أختها، دون علمه، وأفهمتها أن ما حدث من ابنها يعد عيبا. من العيب أن يتطاول الصغير على الكبير. أهكذا يكون جزاء من أفنى خمسا من

السنين كدا وعناء، لقاء أجر بسيط لا يساوى شيئا في غلاء هذه الأيام؟ ووعدتها أختها الصغيرة تفيدة أن تصلح الأمور. ولم يكن حمزة قد قصد الإساءة عمدا، ولا أراد أن يفتعل أزمة مع الأستاذ. أما الكلمات التي تفوه بها، وخرقت طبلة أذنه، فتأثر بها، فقد كانت في نظر حمزة عادية. لهذا وعد أمه أن يرد للرجل كرامته.

زفت البشرى إلى زوجها، الذى لم يتحمس مثلها، واعتبر الكلمات في حد ذاتها جرحا لا يندمل. وأعاد على مسامعها ما سمعه وآلمه، حرفا حرفا..."اعتبر اليوم..آخر يوم عمل.."

هكذا نطقها ببساطة واستهانة، وهانت عليه وشيجة القربى.

حضر ابن الصناديلي، في اليوم التالي، يطلب عودة الأستاذ إلى عمله. حثته أن يوافق. تردد عبد الواحد. الجرح غائر، ولا يمكن ان يلتئم سريعا. سرح بخياله، معبرا عما بداخله:

– تعرفين يا مديحة..طول عمرى أعتبر الموسيقى فنا له رسالة عظيمة. أنا لا أفرح بأجرى، وانما يرتبط فرحي بايصال النغمة الصحيحة المعبرة إلى الصغيرات. الموسيقى يا مديحة لغة راقية تخاطب الإحساس.

ولم تكن الكلمات جديدة على مديحة، فهي تحفظها عن ظهر قلب، لكثرة ترديده اياها.

وكان ابن الصناديلي قد أعطاها كلمات أغنية من تأليف والده، ليدرب البنات على القائها في حفل المدرسة السنوى. ترددت في البداية، فهي تعلم أن حمزة لم يكن يوما ما بذى موهبة. ترددت أكثر لعدم اقتناع عبد الواحد بما هو مكتوب.

أراحها من ترددها، بانتزاع الورقة من يدهـــا، قـــائلا بصـــوت خافت يتسم بالهدوء:

– معي أغاني كثيرة من تأليفه. لم أقتنع بواحدة منـــها. مجرد كلمات ركيكة..

صمت قليلا، ثم قال:

– والغريب، أنه طلب مني أن أعدل فيها..يعني أعيـــد كتابتها.

فتر حماسها. وتبنت وجهة نظره. واصل حديثه:

– والأغرب من هذا، أنه يريد الصغـــيرات يرقصـــن، ويتمايلن على أنغام الموسيقى، وهن يرددن كلماته العرجاء.

– إنه سيدعو كبار رجال التعليم لحضور الحفل.

كأنه لم يسمع ما قالت، أكمل حديثه في حماس:

– الموسيقى إحساس وذوق. ولكي يصـــل الإحســـاس المرهف إلى النفوس، لابد أن يكون إحساسا صادقـــا. واذا لـــم يؤمن الموسيقار بفكرة، عجز عن رصد نغمات مناسبة لها.

غاب عنها لحظات، حيث أخـــرج مـــن درج الصـــوان مظروفا صغيرا، وأطلعها على ما كتبه حمزة. طيبـــت مديحـــة خاطره. تناول عوده، وأخذ يدندن بالعود، فأحس براحة. انشغلت عنه لتتصل بالهاتف، تطمئن على حال ابنتها. وانخرطت فـــي حديث طويل. تصف لا بنتها كيف تعالج صغيرها من ارتفـــاع الحرارة، بينا عبد الواحد يحتضن عوده ويغني:

– حب الوطن فرض علي..أفديه بروحي وعيني..

وعزف نغمات موسيقية تثير الشجن، تحاكي النغمـــات أحزانه، فتشجيه بأنينها. ووضعت مديحـــة ســـماعة الـــهاتف، وجلست تنصت للعزف المنفرد على أوتار العود..

ظل ساهرا حتى منتصف الليل، محتضنا عـــوده، يبثـــه مواجعه وشجونه، فيجيبه العود أنات حزينة، باكية..وتخيل للعود

عينين تدمعان، كأن العود يبكي بدلا منه. فكيف بـك يـا عبـد الواحد لا تبكي لحالك؟ فأنت تختتم رحلة العمر وأنـت خـالي الوفاض، صفر اليدين. لم تبن بيوتا ولم تكنز أموالا. وتـرددت آهات متبادلة بينه وبين عوده..ثم تمدد على الفراش وقد أحـس براحة، ونام تحوطه أطياف المنى.

تهللت أسارير حمزة عندما حياه عبد الواحد..ابتسم فـي ود:

– أهلا عبد الواحد..تفضل..

مد يده يناوله مظروفه، معتـذرا، وهـم بـالانصراف، فاستوقفه قافزا من على مكتبه، يحول دون انصرافه، وأجلسـه متوددا اليه..

– من الآن، أنت حر في درس الموسيقى.

صمت، غير مصدق لهذا التحول. وأكمل حمزة:

– أنت والدنا كلنا.

ودخل الفصل، وقد أحاطته الصغيرات كعقد الياسـمين، وقـرأ الفرحة في عيونهن. وعاد يعلمهن الإيقاع. كيف تتولد النغمـة الصحيحة..كيف ينمو الذوق..ومن آن لآخر يبتعد قليـلا عـن الدرس، ويعطيهن درسا آخر عن الانتماء للوطن..

– يا بنات..الانتماء للوطن بـالعمل، الفعـل..وليـس بالكلمات..

واسترسل يحدثهن، وهن مصغيات لكلامه الحلو، منهيا إياه بعزف على البيانو..هذه نغمة تحاكي سريان النهر..ويؤدى النغمة..وهذه نغمة سريعة تعبر عن الفرحة واللهفـة..ويـؤدى النغمة، فتخفق قلوب البنات حقا..وهذا صوت كالرعد، يعبر عن القوة والجبروت..ويؤدى النغمة..

ويتوقف عن عزف النغمات، ليسرد لهن قصـة بطـل مجهول أحب وطنه، وأفنى عمره يؤدى ما عليه في صمت. ثم

انتقل إلى عالم الموسيقى، يعلمهن نغمة، نغمتين، نغمات متكررة عن طريق التصفيق بالأيدى. وانتـــهت الحصـــة ســريعا ودق الجرس. وهكذا تمضي الأوقات الجميلة. وتجمهرت البنات حول أستاذهن العائد، يرحبن به، وكن سعيدات، وكان هـــو أكـــثرهن سعادة.

وفي حجرته الفاخرة، جلس حمزة يفحص مـــا بداخـــل المظروف، يعيد قراءة أغانيه. متعجبا من العجوز وتشدده. لماذا يقسو عليه؟ يقرأ أغانيه، كلماتها معبرة وبسيطة، تناسب البنـــات الصغيرات. لماذا إذن تستعصي على بيانو عبد الواحد؟ لو يتعلم المـــوسيقى، لكفى نفسه بنفسه. نادى علـــى مـــدرس العربـــي. أطلعه على أغانيه. قرأها وصمت. استحثه حمزة:

–قل رأيك بصراحة..

اكتفى بقوله:

– خطوة مباركة يا افندم..

اشتعل عبد الواحد حماسا، في عمل التجارب اســـتعدادا للحفل السنوى. وزع الأدوار على البنات. سنغني جميعا للوطن. اَستعدوا يا بنات.

حضر حمزة حفلا تجريبيا. لم يتمالك نفسه من التصفيق اعجابا وتشجيعا. وحين انصرف ، متوجها إلى عربتـــه، ألفـــى مجموعة من البنات وهن منصرفات إلى بيوتهن، يرددن بإيقاع منظم حلو كلمات النشيد:

– وطني حبيبي..الوطن الأكبر..

وأدت أيديهن بالتصفيق الموحد إيقاع اللحن..ففطن إلـــى المسافة الكبيرة التي تباعد بينه وبين عبـــد الواحـــد، مســـافة لا يستطيع أن يجتازها ولو بأمواله..لكنه استمتع بالأداء، وشنـــف أذنه ما سمع.

لمحه وهو يتأهب للخروج من المدرسة. بادره في أدب جم:

– تفضل يا أستاذنا..

وانحنى احتراما، وهو يفتح العربة. وتطوع للعودة بـــه إلى بيته. ومازال صوت البنات يشنف الآذان، تجاوزتهن العربة وحركاتهن الرشيقة، مـــع التصفيـــق والأداء، جعلـــهن يبـــدون للناظرين كأنهن حوريات قادمات من الجنة.



رأس الأفعى

حكم عليه بالسجن مدى الحياة، في جريمة لم يركتبها. يتكوم جسمه النحيل على كرسيه. يقدمون له الطعام والشراب. يشغل وقته في التنقل عبر القنوات. لا يتنقل على رجليه أو راكبا دراجة أو سيارة أو قطارا أو طائرة. ينتقل بجهاز التشغيل عن بعد، فيرى على الشاشة صورا شتى، ويا هول ما يرى! جثثا وأشلاء ودما مراقا على أرض الكرة المجنونة. تئن الشاشة الصغيرة، تستنفره الصور. أمسك بالقلم. يكتب رسالة، ينبه معد الأخبار كي يتحاشى نقل اللقطات..إنها تدين، تنطق، ومن العار أن تجلس ساكنا على كرسيك، افعل شيئا. هذا التصوير تمثيل بالجثث. يردون عليك يا مسكين بأن عالمنا قرية صغيرة، تتعرى فتفضح الجسم المشوه والوجه القبيح الناطق بزيف بطولاتنا ودعاوانا. كتب الكثير، وتقاطرت دموع من عينيه، سالت على الورق. ألا يكفيك مستنقع الدم الذى نعيش فيه؟ أعاد قراءة ما كتب. وطوى الرسالة..التي تقدم له طعامه وشرابه ودواءه، تحمل معها أيضا الجرائد والمجلات، وتضع بريده فى الصندوق. التى تقوم على خدمته وصيفة تأخذ من أبيه راتبها. ودفع عنه أبوه، بثروته الهائلة، مذلة الاحتياج إلى المال.

توتر. غلا الدم في عروقه. ناقش الوصيفة. أبان لها مدى الجرم الذى نتردى فيه جميعا. طلبت منه أن يخلد إلى

الراحة. لا فائدة من شيء. أجل، لا فائدة من شيء. فـــها هـــو سجين كرسيه، رهين محبسه، محكوم عليه بحياة لا طعم لها.

فـــي الجريـــدة، تحقيـــق عـــن مغتصبـــات بوســـنيات مستضعفات. ترك المحرر لهن حرية الكرم. تحدثت فاتيما عن جارها الذى انقلب ذئبا، وعن أخته التي كانت يوما ما صديقتها. كانتا تذهبان إلى المدرسة كل صباح، يحلمـــان ســـويا بـــالغد، ويبتسمان للحياة. هجم عليها جارها وهي في مهجعها، وكـــانت تحسبه آمنا، هجم عليها مع نفر من أقرانه، كل يـــأخذ وطـــره منها، بالتناوب، غصبا وعنفا. ولما لمحت أختـــه، اســـتعطفتها بصـــداقة جمعتهما ذات يوم، أشاحت وجهـــها عنـــها كأنـــها لا تعرف فاتيما، وتركتها لقمة سائغة للذئاب. يا الله..مـــن أطلـــق الشيطـــان الحبيس من قمقمه؟ الحية تنفث ســـمومها. اشطبـــوا كلمـــة (انسان) من قواميس لغـــات العـــالم. اخلعـــوا أرديتكـــم وأقنعتكم الزائفة. اكشفوا الوجه القبيح الكريه. أميطوا اللثام. يـــا الله..وهل بعد ذلك إماطة؟!

أعطته الورق. كتب رسالته عن حقوق ضائعة. ابتسمت الوصيفة:

– لا تتعب نفسك.

قالت في تحد سافر:

– إن لم تكن عاجزا، لاغتصبتني..

– ماذا تقولين؟

وجم، كمن تلقى طعنة بخنجر سام. قالت تداهنه:

– لا أقصد شيئا. كل ما هنالك أنك سوف تجمل فعلتـــك وتزينها بأنك أحببتني، وأنك عاجز عن مقاومة اغرائي.

– إني عاجز عن...

ولم يكمل. اختلطـــت المعـــاني والحـــروف، فتلعثـم لســانه، واغرورقت عيناه بدموع. هل يصير وحشــــا؟ قـد لا تتقـاتل الوحوش فيما بينها هكذا.

لحظات مريرة صامتة، ثم صرخ بكل قواه، كأنه يـــهزم صوتا يضج بجنبات نفسه:

– لست كأولئك الوحوش..

أبعدت الجريدة، وأضاءت الشاشة الصغيرة. ما زالـــت الأخبار الدامية تدق عظام جمجمته بإلحاحها المتواصـــل ليـل نهار. مقتولون هنا، ومقتولون هناك. لا تقل قتلى، إنـــها كلمـة غير دقيقة. ألأيس كذلك ياسهى؟ فالقتيل يمكن أن يقتلـــه الغـير مصـــادفة أو عمدا، أما المقتول فقد قضي عليه وحكـم عليـــه، عمدا وإصرارا ورصدا، إنهم مقتولون ومقتولات..

– أرح نفسك. أنت فرد. ورسائلك الساذجة لا تســاوى، في نظرهم، الحبر الذى كتبت به. عذبته كلمات سهى. ومديعـة الربط تعلن عن موعد نشرة المواجع. الضحايا يتساقطون هنـــا وهناك.

كل يوم ضحايا، كل ساعة، كل دقيقة، كل لحظة..وليس ثمة غد أفضل للإنسان.

انتفض حين سمع رنين الهاتف. ناولته السماعة، فأتـــاه صوت أبيه يوصيه بأن يتدثر جيدا من البرد الذى يكسر أضلاع الجسم. ويعتذر عن عدم زيارته، فالمصنع يمر بأزمــة حــادة، ومزارعه في الفيوم تقضي على ما تبقى من وقت، فيرجع إلـــى بيته في وقت متأخر، فتعتب عليه زوجته انشغاله الدائم عنها.

هكذا أبوه. مشغول دائما. وأعذاره كثيرة. فلا يكاد يراه إلا مرة كل شهر. يقضي معه وقتا لا يتعدى الساعة. وينتفـض الأب عندما يجد ابنه يوصيه بزيارة قبر أمه، فيطمئنه بأنه يفعل

ذلك من وقت لآخر، ويشيح بوجهه، حتى لا تقع عيناه على نظرات الشك في عيني الإبن المصلوب على الكرسي.

يضع السماعة، وهو في توتر بالغ، متذكرا أمه المتوفاة وهو في الخامسة عشر. وطفق يذرف الدمع. تصمت سهى وقد انتقل إليها حزنه. تخرجه بعد لحظات من حاله هذه قائلة:

– الله يرحمها.فلنقرأ الفاتحة على روحها.

ويقرآن الفاتحة معا.

واستسلم للنوم، ولم تشأ سهى أن تتحرك بكرسيه لتنقله إلى السرير. قد اعتادت منه هذه الإغفاءة القليلة، ويصحو منها ليتناول قليلا من الطعام، وجوعة الدواء، ثم تعد له قدح الشاي. ويطل من جديد على عالمه الخارجي، فيعود إليه التوتر. تناول القلم وأخذ يكتب رسالة جديدة، قال فيها أن صناعة السلاح أس البلاء وأصل الشرور، تعارضه سهى:

– نوازع الشر يتوارثها الإنسان، منذ خلق الله آدم وحواء.

أصابه خرس، لم ينبس بشيء..أكملت:

– لا تنس قابيل وهابيل..

-- أنا لا أنسى شيئا، لكن....

– فيم تفكر؟

– في القديم، كان الفارس ينازل خصمه، ندا لند. وإذا ما انكسر سيف الخصم، رمى الفارس سيفه، ونازل خصمه رجلا لرجل. إنها الفروسية والشجاعة. أما الآن..

– القتل خلسة وغدرا وخداعا وغشا..

أخذ يقرأ في الدوريات عن منظمات حقوق الإنسان، وعن مؤتمرات وندوات للدفاع عن تلك الحقوق.

- إنهم يتحدثون عن حقوق كائن آخـــر، أليـــس كذلـــك ياسهى؟

- إنهم يدافعون عن مصالحهم..

مذيعة النشرة تتحداه. لم تزل تذيع أنباء عـــن حمامـــات الدم، وتبث التقارير المصورة، عن مقتولين متعــــانقين، عنـــاق روميو وجولييت، فما انفصل الجسمان، بعد رميهما برصـــــاص جبان. أطفأ الجهاز، وعاد يقرأ التحقيق بالجريدة عن مغتصبات بوسنيات أخريات. كل شيء مكتوب بالحبر الأسود. كل شـــــيء منشور على الملأ، بكل لغـــات العـــالم، وآلات التصويـــر ذات الأضواء الخاطفة المبهرة، صورا متدنية، بالأبيض والأســـــود، وبالألوان، كل الألوان، لكن الأحمر القاني هو السائد....

مغتصبة أخرى يزعجها الصحفي بأسئلته. تطلب منه أن يكف ويرحمها. تخفي وجهها بكفيها حتى لا تلتقط لها صــــورة. تقاطرت دموع من عيني الصحفي، كتب يقول: "ما عدت أفرق بين مهمتي الصحفية وبين رغبتي في تهدئـــــة بدريـــة. أغلقـــت أوراقي، ودسست قلمي في جيبي. وأخذت أعالج أحزانها قـــــدر جهدى، ولكن هيهات، صرخت بدرية فـــــي وجـــهي، بكلمـــات متدافعة كطلقات الرصاص، تحكي لي مـــــا أصابـــها، بعـــد أن وعدتها بألا أكتب حرفا واحدا مما قـــالت، أو أكتـــب تلخيصـــا للحادث. وها أنا أفي بما وعدت، ولا أكتب شيئا سوى اســـــمها، وقد وافقت على نشر الاسم فقط"...

هوى بقبضة يده على مسند الكرسي ذى العجلات:

- أين أنت ياسهى؟

أتاه صوتها من المطبخ:

- إني قادمة بصينية الشاى. لا تنفعل كثيرا..

وأتت تهرول. وضعت الصينية على المنضدة، وجلست إلى جوار كرسيه، قطة أليفة أنيسة.

قص عليها ما لم يقرأ من قصة بدرية. شرح لها ما يكون قد حدث. ثم طلب دفتر الرسائل، وحرر رسالة إلى الصحفي، ناقلا إليه الأثر الذى أحدثه التحقيق في نفسه.

عاود الاستماع إلى المذيعة"، قارئة نشرة المواجع، عن حوادث العنف، معقبة على كل خير بابتسامة صغيرة تظهر بها رقتها. توقع حدثا جللا. ضجت الكرة بالضحايا. قد تنفجر الكرة المجنونة ذات يوم. قد تقدم على الانتحار. تتشرذم في الفضاء الواسع، تتحول إلى شظايا، ولا يبقى منها من أثر. ويبقى الكون في ديمومته وأبديته، شاهدا على كوكب طائش.

هاك مصور يلتقط صورا للجياع، بأجسامهم الضامرة. النساء عاريات الصدور، بأثداء عجفاء، وعيون زائغة. والأطفال، عظام بارزة، ورؤوس كبيرة لا تعي ما حولها.

أتاه الحلاق. أخرجه من عالم الكوابيس. حياه وجلس يسليه ببعض النوادر. فأحس بأن ذقنه قد كبرت، كذلك شعر الرأس، ورأى أنه لم يأخذ حماما منذ أسبوع. هذا اللقاء الأسبوعي، لقاء حتمي مع الأسطى فتحي الحلاق. يرسله إليه أبوه، ولا يتأخر عن موعده. بينا الحلاق يحلق له شعره وذقنه، كانت الوصيفة تجهز له الحمام الساخن. عند ما يحضر الأسطى فتحي، ينسى كل ما يفكر فيه، ويتسلى بنوادره وفكاهاته، إلى أن ينصرف. ويرفض أن يأخذ منه نقودا، قائلا له:

– الحاج يعطيني من خيره الكثير.

ويشرد في أمر (الحاج)، والده، الذى يهتم بشئونه المادية، ورعايته رعاية كاملة، لكنه يتركه لهواجسه وعذاباته.

القناصة في كل ركن يختبئون، ويحصدون الرءوس. وعصابات المافيا لا ترحم. ورأس الأفعى لم تقطع بعد. ما زالت تطلق فحيحها، تنشر سمومها. ناولته سهى دفتر الرسائل، وطفق يكتب رأيه...."إن أردتم صلاحا، فاقطعوا رأس

الأفعى. إني رأى أم رأسها، أراها بعيني، واضحة وضوح الشمس، تنسج خيوطها العنكبوتية حول رقابنا جميعا..إني أراها، أنا الجالس على كرسي أنفذ حكما لم يصدره قاض بالسجن مدى الحياة،في هذا البيت الدافيء، وعلى هذا المقعد الوثير، لا أفارقه. لكن رأسي تضج بالضجيج والعجيج. وعيني لا ترى إلا السواد، إلا الأفعى. اقطعوا الرأس. إن اكتفيتم بقطع الذيل، فهناك ألف ذيل تنبت لها. لا فائدة يا سادة، ما لم تقطعوا الرأس، فلا فائدة، وعلى الأرض السلام."

انهمرت دموع تغسل وجنتيه، تقاطرت منها دموع ساقطة على الرسالة، فأضاعت معالم بعض الحروف. أعاد كتابة الرسالة، دون أن يكل، ومزيد من الدموع تتبجس من عينيه المؤرقتين. ولما ألفت ما هو فيه من كمد، أخذت منه القلم، وأخذت تكتب ما يمليه عليها. وأرسلت الرسالة إلى الجهة التي حددها.

كل يوم يكتب رسالة، ولا فائدة. كتب إلى كل المنظمات والهيئات والصحف والمجلات، وإلى الرؤساء والوزراء والأمناء. لم يكف قلمه عن الكتابة، وسهى تعايش أرقه، مشفقة عليه، تكاشفه بأنه يحمل الأمور فوق طاقتها، وأن له أن يستريح. سخر من نفسه:

– أستريح؟ كيف ياسهى؟ قد شل جسدى ، كما ترين..

– لو أنك صحيح الجسم معافى، ما فكرت في كل هذا..

– لماذا؟

– لأنك سوف تكون مشغولا بحياتك، وتلهث في ركابها..

– تقصدين..؟

– أقصد أنك...سوف تبحث عن مصالحك.

– كلماتك قاسية ياسهى.

– أرجو ألا تتضايق مني..
– بالعكس، تعجبني صراحتك. لكن، اسمحي لي..
– تفضل..تكلم..
– ألا قرأت التحقيق..
– بلى، قرأته..
– كتبه صحفي ممرور مثلي، والفارق بيننا، أنه صحيح معافى، وأنا مقعد..
– إنه يكتب بحكم مهنته. لا تنس أنه جـــازف بحياتـــه لدخول منطقة غير آمنة، جريا وراء مجد صحفي.
– قد أفرغت التحقيق من مضمونه.
صمتت، حتى لا تطيل الحديث. أضاف:
– هناك صحفيون يكتبون أشياء تافهة.
– ألا ترى أنك سهرت حتى منتصف الليل؟
– إني قلق الليلة.
– بل أنت قلق كل ليلة. لا بأس من إعداد عصير فاكهة لك.

تركته وحده أسير كرسيه محدقا في الشاشة الصغـــيرة، تداعب أنامله أزرار الجهاز الصغير، من قناة لأخـــرى، تتـــاوه المغنـــية من فراق الحبيب، ثم طالعـــه وجـــه المذيعـــة ينـــذره باقتراب موعد نشرة المواجع، وأنباء المجازر. رقبـــة المذيعـــة مديدة، يلتف حولها عقد من اللؤلؤ الحر. تقرأ ما هو مســـطور أمامها على الورق. تنتفـــخ عـــروق الرقبـــة حســـب مخـــارج الحروف. لأول مرة ينتبه إلى ما تحدثـــه مخـــارج الحـــروف. وحبات اللؤلؤ..تبدو جماجم بشرية صغـــيرة. مـــا هـــذا أيتـــها المذيـــعة؟ نظر إلى فمها، المصطف داخله أسنان بيضاء، فـــإذا بها أيضـــا قد تحولت إلى جماجم بشرية. نادى على سهى، لعلها تنقذه من هذا الرعب المدمر. أسرعت إليه بكوب العصير، فلـــم

يشرب. طلب منها أن تلاحظ معه تلك الجماجم المصطفة في استدارة العقد حول رقبتها، وفي استدارة الأسنان، صفين منتظمين...ند وجهه بحبات عرق غزيرة،غرق جسمه في العرق. أطفأت الجهاز، واستعطفته أن ينام، حتى يستريح. حاول أن ينام..سأل:

– ما مصير رسائلي؟

– إني أودعها بالصندوق، كل يوم..لا شك أنها تصل لأصحابها..

– وأبي، أما من رسالة تأتيني من أبي؟

– ربما..

– وأمي، أريد أن أكتب إليها رسالة..

– فلنقرأ على روحها الفاتحة..

وقرآ الفاتحة معا..

وقال وهو بين اليقظة والمنام:

– أريد أن أكتب رسالة إلى الله..



هاتوا لي بابا

يتنازع مع أخته مها، كي يحمل عنها الحقيبتين. تتعلل أمه بثقلهما، فيتشبث بمكانه على طوار الشارع، لا يتزحزح قيد أنملة. سدى تضيع محاولات الأم. تهدده بإرجاع ما اشترته إلى البائع ، فلا تنطلي عليه الحيلة، ويصر على حمل الحقيبتين، باعتبار ما بداخلهما أشياء تخصه.

تعرض عليه حلا وسطا، باقتسام الحقيبتين. تعطيه مها الحقيبة التي بداخلها حذاءه، وتبقي الثانية في يدها، التي بداخلها بدلته وقميصه الجديدين. يتناول الحقيبة، يسير بها خطوات قليلة، ثم يعلو صياحه من جديد، ويدق الأرض بقدميه، مصرا على حمل الثانية أيضا. تحتار الأم من عناد أيمن، الذى لا يتعدى عمره السنوات الخمس، ولا يقوى على حمل الحقيبتين والسير بهما.

– أيمن يا حبيبي، إنك لا تستطيع..

يبكي. يزداد ضربه الأرض بقدميه الصغيرتين. تنهره. لكن المحاولات تضيع سدى. وينخرط في بكاء متواصل، بينما مها التي تبلغ تسع سنوات، تهدده بأخذ الحقيبة منه، إن لم يكف عن بكائه. وإزاء حصار الأم والأخت، يصرخ فيهما:

– هاتوا لي بابا..

تفجأ الأم بالطلب الغريب المستحيل. كأن الأرض زلزلت من تحت أقدامها. تنتزع الحقيبة من يد مها، وتعطيها له.

تربت على كتفه، تعالج بكاءه الذى سرعان ما ينتهى. يسير على مهل، عاجزا عن مواصلة السير بالحمل الثقيل. لكنه فرح بما يحمل. تضطر الأم أن تحمله على ذراعها، وهو حاضن للحقيبتين في فرح غامر.

غداً عيد ميلاده. أصرت على إدخال البهجة إلى قلبه، بشراء الثياب، واعداد كعكة عيد الميلاد، والحلوى وتزيين البيت بالبالونات وورق الزينة الملون.

تتوسل إليه أن يعطي حقيبة لمها، حتى تقرر على حمله، لكنه يرفض ويقول:

– أنزل أمشي..

– لا تستطيع..

تقول مها متبرمة:

– دماغك ناشفة..

فيرد عليها:

– هذه حاجاتي، وليست لبنات مثلك.

تضحك الأم. بينا يعلو صدرها ويهبط من الإجهاد. تحسب الخطوات الباقية حتى تصل إلى البيت. تقف تريح ابنها على الأرض. تلتقط أنفاسها. تحتال مها عليه، لكنه متشبث بحاجياته، يترك أمه واقفة ويسير بمفرده خطوات قليلة، فينكفيء على وجهه، تقع الحقيبتان على الأرض. تلتقطهما مها وترفع الأم ابنها وتحمله، وهي تربت على ظهره، وتسرع به إلى البيت.

****

تلبسه الثياب الجديدة، وتخبره مها أنها أعدت له مفاجأة.

وبرغم سعادة الطفل بحلول عيد ميلاده، واهتمام أمه وأخته به، فإنه يعيد القول:

– هاتوا لي بابا..
تصمت الأم وسكين الألم يدمي قلبها. ترد عليه مها:
– ألا تعلم أن بابا مسافر؟
– طيب..أسمع صوته في التليفون.
تلملم الأم أحزانها.تسأل مها:
– أيمن عنده حق. لماذا لا يكلمنا في التليفون؟
– ليس عنده تليفون.
– إذن، يكلمنا من أي تليفون.
– إنه يعيش في قرية لا يوجد فيها تليفون.
يسأل أيمن:
– ما القرية ؟هل هي عمارة كهذه؟
– بل بلد صغيرة.
سكين الألم يؤلم جنبيها. تنضو ثوبها. ترتدي جلباب البيت. ترتمي على الفراش وفي قلبها اضطراب. تاركة طفليها يتجاذبان الحديث في الصالة، عن عيد الميلاد والملابس الجديدة.

****

أين أنت؟
حي أنت أم ميت؟
طليق أنت أم أسير؟
تنهمر الدموع من مآقيها ولا تستطيع لها دفعا. نشيج متواصل. تستسلم لضعفها بعد طول تجلد أمام ولديها.
أين أنت يا نور؟ ماذا فعلت بك الأيام والسنون؟
مضت سنوات عديدة منذ غزا العراق الكويت واستباح أرضها، وهي في بحث دائب عنه، متحلية بالصبر. تراودها ظنون وهواجس، تفتح في الخيال طاقات أمل. ما إن تغلق

طاقة، تجاهد كي تفتح طاقات اخرى، ولا تقطـــع الأمـــل فـــي مجيئه.

التقت بعائد من الكويت الجريح، وكـــان زميـــل عمـــل لزوجها، فأخبرها أنه التقى به، آخر مرة، عند مجمع استهلاكي يبتاع منه السكر والشاى. كان ذلك بعد الغزو بأيام قليلة. والتقت بعائد ثان، أخبرها أن هناك أصدقاء له، سمح لهم بالرحيل مـــن الكويت إلى العراق، ومن العراق إلى الأردن ، ومن الأردن إلى مصر، في رحلة طويلة مليئة بالصعـــاب والمخـــاطر، وطفـــق يصف لها تلك الرحلة غير المأمونة، وقال محييا أملا جديدا في قلبها المعنى:

– ربما سلك نفس الطريق الذى سلكنا، واحتجز لســـبب أو لآخر في بلد ما.

لكن الأمل سرعان ما تنده في مـــرارة، وتعلـــق علـــى كلامه بصوت جريح:

– ربما أصابته رصاصة، فسقط قتيلا..وما أكثر الطيش والجنون في زماننا.

يطيب خاطرها:

– قلبي يحدثني أنه حي يرزق.

يأتيها صوت ابن خالتها عبر أســـلاك الـــهاتف، مـــن السعودية، ليخبرها أنه أوصى صديقا قبل سفره إلـــى الكويـــت، بأن يسأل عنه في محل إقامته في الصفـــاة. وعندمـــا وصلـــه صوتها اليائس، أعاد القول، بأنه سيتوجه بنفسه إلـــى الكويـــت ويسأل عنه. وبر بوعده، بعد شهرين من المكالمـــة، إذ وصـــل مصر، وزارها، محملا بهدايا لمها وأيمن، وعلمت منه أنه لـــم يستطـــيع الاستدلال عليه!..إذ أن جهة عمله، أفادت أنـــه كـــان كثير الأسفار والتنقلات، وأنه ترك العمل قبل الغزو بشـــهرين، وربما التحق بشركة مقاولات، وانتقل إلى موقع آخر. كما أنـــه

سأل الجيران – وكان في صوت ابن خالتها الكثير من المرارة، وفشل في تحسين نبرة الصوت – ....قاطعته في لهفة:

– ماذا قال لك الجيران؟

– أخبرني الجيران أنهم أغلقوا بيوتهم وتركوا البلد، كل بوسيلته. ولعل نور فعل الشيء نفسه. لكنهم حين عادوا، وجدوا شقة نور يسكنها آخر. الذى أفاد أنه كان يؤجرها له مفروشـــة. ولما لم يجده، سكنها هو، بعد استقرار الأحوال.

*****

وبينا تترى الخواطر، يتناهى إلى أذنيها صوت شجـــار وزعيق مها وأيمن..لكنها تستسلم رغما عنها لاغفاءة قصــيرة، فتتسمع صوتهما كأنها تحلم، ويختلط الحلم بالواقع، لم تعد هناك حدود فاصلة، ربما هي تحلم لكنها يقظة، وربمـــا هـــي يقظـة فتخايلها أحلام وخيالات. يتواصل الشجار بينهما، فيتناهي إليها صوته، وهي في حالة استسلام لاغفاءة، فتسول لها نفسها أنـــه حلم يراودها..فلا تتدخل فيما تسمع، إذ شغلها نـــور وشاغلــها، حين دخل في حلة قشيبة، يدنو من حافة السرير، ينحني متوددا، ثم معاتبا:

– أتنامين، ولا تسمعين زعيق الأولاد؟

تنتفض، تنهض لفض المشاجرة. كان نور يملأ البيـــت أنسا وحسا افتقدتهما من سنوات بعيدة. تقف بقميص النوم، فـــلا ترى إلا صورة حطام جسدها، تعكسه مرآة التسريحة. لم يكـــن نور إلا طيفا ولم يكن له في الواقع ثمة أثر. تهرول إلى الصالة. تزعق في الولدين:

– ألا تتركاني أستريح قليلا؟ كفى..

تهجع مها في ركن الصالة، جالسة القرفصـــاء وهـــي صامتة، خشية أن تضرب، بينا ينخـــرط أيمـــن فـــي صـــراخ

متواصل، يطلق صرخات احتجاج مبهمة..تخطو إليه وقد هـــدا انفعالها، وضمته إلى صدرها..

– أيمن ياحبيبي..ماذا جرى لك؟

تبادر مها، من الركن البعيد:

– لم ألمسه.

تنشغل الأم عن مها بالربت على ظـــهر أيمـــن. يلـــف ذراعيه الصغيرتين حول ظهرها العارى، ولا يزال صدره يعلو ويهبط، بنشيج متواصل. تحضنه بقوة، وتستعطفه أن يهدأ.

– هاتوا لي بابا..

ترد عليه في أسى:

– سوف يرجع..نور سيرجع.

كأنما تؤكد لنفسها..

– هاتوا لي نور.

تسأل مها:

– هل صحيح أن أبي سافر إلى مكان بعيد جدا، ولـــن يرجع؟

يرد أيمن بعد أن هدأت أنفاسه:

– لا يا مها..أبي سيرجع..

تقول له مها:

– أنت لا تعرف شكله. أنت لم تره، وأنا رأيته.

يصرخ من جديد:

– هاتوا لي بابا..

تصرخ الأم في وجه مها:

– كفى يا مها. لا تثرثرى. كفى الهم الذى بي.

تدع أيمن يخطو إلى أخته، مؤكدا لها أن أباه ســـيرجع. تدس حطام جسمها في مقعد، وتبكي. يسرع الولدان إليها، يلتفان حول المقعد كعقد الياسمين. وما ملكت مها إلا مشاركــــة أمـــها

قطرات من عينين بريئتين. ويكف أيمن عن البكاء، ناظرا إليهما بعينين مذعورتين.

***

تطرق كل الأبواب. تبحث عن نـــور. تتجـــه إلـــى الله بالدعاء أن يرد إليها نور. أين أراضيـــه؟ تتصـــل بالســـفارات، وتكتب الرسائل. طلبوا منها ملء استمارة بيانات. وتنتظـــر، لا مجيب، كأنه فص ملح ذاب.

يقترح عليها عبد الحفيظ، زميلها في العمل، أن ترفـــع قضية، ليحدد لها القاضي فترة زمنية حددها القانون، يحكم لـــها بعد ذلك بأن زوجها في عداد المفقودين. تنتفض مذعورة:

– لا يا عبد الحفيظ. زوجي لم يمت.

يصر على موقفه، كي تفيق من أوهامها:

– هذا أفضل مما أنت عليه.

يعقب بعد صمت قائل:

– وبذلك يحق لك الزواج.

– لا أريد الزواج. فقط أريد زوجي.

يتنهد عبد الحفيظ، ثم يقول:

– على الأقل، يحق لك وللأولاد أن ترثوا..

يكفهر وجهها. توليه ظهرها منصرفة، مســـتأذنة مـــن رئيسها، تغيب عن العمل ثلاثة أيام. تخاصم عبد الحفيظ، فيأتيها معتذرا، مقدرا ما هي فيه من حال. تشكر له نبـــل مشـــاعره، تطلب عفوه لما بدر منها من انفعال وحدة. وظل عبـــد الحفيـــظ مهتما بشئونها، ولا يفارقها. وقدم لأيمن لعبة هديـــة فـــي عيـــد ميلاده.

قيل لها أنه يمكنها مراجعة أسماء الأسرى. تذهب لتقرأ القوائم. تقرؤها مرة واثنتين، ولا تجد اسمه. ترجو الموظف أن

يبحث بنفسه عن اسم زوجها وسط مئات الأسماء، ولكنه هو الآخر لا يعثر على اسمه تشير إليه بأن الأسم ربما كتب محرفا، فيعيد القراءة والمراجعة، ارضاء لها، ولا يجد اسماً قريباً من اسمه!.

ترنو إلى صورته في إطارها المذهب..تناجيه..هل أنت في عداد الأموات؟ ويحي. لا. أنت حي. نور حي. أين أنت يا نور؟ وترنو إلى صورتها في المرآة، شحوب بالوجه، وشعر أبيض قليل يغزو مقدمة الجبين، ولا يزال جيدها يحتفظ بأنوثة طالما أعجبت نور، وتغزل في النهدين اللذين لجأ كثيرا إلى صدره وارتميا عليه، غاصا فيه. كان يضمها في حنان، يكاد يعصرها عصرا. هذا الجسد له، وليس لرجل آخر.

عبد الحفيظ شديد الاهتمام بها. جزاه الله كل خير. تحفظ مقولته التي لا يمل ترديدها: "إني رهن الإشارة ".يؤدى لها خدمات كثيرة، ولا يطمع في شيء سوى تبديد سحابة الحزن المخيمة على وجهها. عبد الحفيظ متزوج وله أولاد، وهو سعيد مع زوجته. ترتاح له، وتحس به رجلا شهما لا مأرب أو غرض خاص به. ولا تنسى مقولة ثانية له بأنه يعتبرها أختا له، فتبادله الشعور بأنها – أيضا – تعتبره أخا لها. وحين يؤكد على أهمية أن تكون أختا له، بأنه ليس له أخوات، تؤمن على كلامه بأنها هي الأخرى ليس لها أخوة. كأن ترقيهما هذا لم يحدث مصادفة، أو بحكم أنهما زميلان في عمل، وانما هو تلاق صنعه الخالق الرحيم الحافظ. أصبح عبد الحفيظ بالنسبة لها طوق نجاة في بحر حياتها المتلاطمة أمواجه، ولا شطآن له.

يتزايد الإحساس بالألم من إصرار الصغير على أن يحضر أبوه. يرن في سمعها كلامه العفوى:

– هاتوا لي بابا.

"حبيبي يا أيمن، هذا هو الشيء الوحيد الـذى لا أقـدر
عليه. ألبي طلباتك كلها، وأحضر لك ما تشتهيه نفسك من طعام
وشراب وحلوى، من ملابس وهدايا ولعب، حتى أن مها تغـير
منك، ومن شدة اهتمامي بك. حتى لو طلبت لبن العصفـور، إلا
هذا..أنا يا فلذة كبدي أدعو الله أن يرد لي زوجـي، فلتـدع الله
معـي،إنه على كل شيء قدير. أنا ضعيفة مثلك يـا أيمـن. لا
حيلة لي في هذا. أنا مثلك يا فلذة كبدي، أصرخ معك، أصـرخ
في كل الناس: "هاتوا لي نور..". لكن، لا أحد يجيـب. يعجـز
الناس عن الاصغاء لهذا الطلب الغريب".

كلما قرأت عن أسرى بالعراق، يدغدغ الأمل ضلوعـها
بأنه واحد منهم، لكنه السراب الذى تلهث وراءه. وأيمن لم يـر
أباه. سافر إلى الكويت وهي حبلى في شـهرها السـابع. رأى
الدنيا، ولم ير أباه. لم تكتحل عينا الصغير برؤية أبيه.
والصغيرة مها، تهرع إليها متضامنة مع أخيها:

– حقا يا أمي، لماذا لا يحدثنا بالتليفون.

– اغربي الآن عن وجهي.

لا تتزحزح قيد أنملة. لا تعبأ بالتوتر الذى يصيب أمها،
من طول ما ألفت من توتر. قالت:

– ربما لو كتبت له رسالة، يـرد عليـها برسـالة أو
مكالمة.

ماذا جرى لك، يا ابنة السنوات التسع؟ صرت مثل أيمن
في أفكاره وكلامه. تتحمس مها:

– اعطني العنوان، وأنا أكتب له.

– لا أعرف له عنوانا.

تنزعج مها، تفغر فاها:

– ماذا؟

تفجأ الأم بحال ابنتها. لا تزال تعيش في وهم أنه مسافر
إلى بلد بعيد. تفكر قليلا ثم تسأل:

– هل أنتما متخاصمان؟

يقترب منهما أيمن، صارخا في وجهيهما:

– هاتوا لي بابا..

تلجأ إلى الهاتف. تتصل بزميلها عبد الحفيظ، تستنجد به، تحكي له حال الصغيرين. يهمس قائلا:

– سألجا إلى الحيلة..أغير صوتي وأتحدث إلى أيمن كأنني أبوه.

تندهش..

– ماذا؟

– ضعي السماعة لأطلبك..

تضع السماعة. وقد هدها التعب ونال منها الإعياء. يرن جرس الهاتف. لا ترد. تهرع مها. ترفع السماعة. يأتيها صوت عبد الحفيظ، مدعيا أنه أبوها. تفرح الصغيرة. تنادى على أمها. تطلب منها أن تعطي السماعة لأيمن. يطول الحديث بين الصغيرين وبين عبد الحفيظ. يفرح أيمن. يطلب منه أن يحضر عيد ميلاده. يعتذر بشغله الكثير. وتقول له مها أن صوته "به بحة". يدعي أن نوبة برد أصابته. الأم مستكينة في كرسيها، ترقب الصغيرين ولا تني تتحرك. تنادى عليها مها:

– تعالي يا أمي. حدثي أبي وأنهي الخصام.

تحادث عبد الحفيظ بكلمات باردة، وما تشعر إلا بالأرض تميد من تحتها. تنهي المكالمة سريعا. تهرع إلى الفراش وهي تبكي. تهرع في أثرها مها، ومن ورائها أيمن. تتشكك مها..

– أحس أنه ليس صوت أبي.

يخالفها أيمن في الرأى:

– لا..إنه صوت أبي. قال لي: كل سنة وأنت طيب يا أيمن..

تحضنه الأم غامرة وجهه بالقبلات..

– أيمن يا حبيبى كل سنة وأنت طيب..

ويغتسل وجه الصغير بدموع أمه..

أحزان أدهم

وسط الحلقة الدائرية، يقف عنتر مخاطبا الناس بصوته الجهوري الأجش..

– يا أهل بلدى، يا أحباب..لست حاويا، ولن أكـــون. فقـــط انتبهوا لحيلي..هي خفة يد ومران متواصل، حتـــى اســتطعت الوقوف بينكم، أعرض حيلي. والناصح اللبيب، من يعرف كيف أؤديها.لست حاويا، ولا أنا ساحر، لكنـــها خفـــة يـــد وســـرعة حركة..خذوا بالكم..هذا الجنيه الـــذى أعطيتـــه لـــهذا الشـــاب، سأضعه في الكوب المليء بالماء. ســـأقلب الجنيـــه بالعصـــا، هكذا...

ويقلب الجنيه في الماء كما قال، ثم يستطرد سريعا:

– وبحيلة من حيلي، ســـيتحول الجنيـــه إلـــى خمســـة جنيهات..

بنت صغيرة لا تتعدى العاشرة من عمرهـــا، تشرئـــب بعنقها، كي ترى عنتر..

البنت اسمها سحر.

يد أبيها تضغط على كتفها..

– هيا يا سحر..

– أرجوك يا أبي..نقف ونرى اللعبة.

لا يحق له أن يحرمها من الفرجة. لم تر سحر أمثال هذه الحيلة العجيبة. لكنه يخشى الزحام فبدأ يتلفت حواليه حذرا من النشالين.

يزعق عنتر بصوته الأجش..

– صلوا على النبي ياحضرات..وحدوا الله..أنا واقف بينكم لأمتعكم بألعابي، وأرضى بما تجودون به..هذا خير ألف مرة من استغلال خفة يدي في النشل. وبالمناسبة، احترسوا من النشالين.

ومن جديد، يضغط أدهم على كتف سحر، لكنها لم تعد تأبه، وتسمرت في مكانها، مدهوشة،معجبة بكلام عنتر وألعابه. ما زالت الكوب في يد مساعد عنتر، وبداخلها الجنيه المغمور في الماء.

– قبل عرض ألعابي، بودي أن أنال رزقي مما يجود به الكرماء.

تمتد الأيدي في سباق عجيب. وتمتلىء قبعته الممدودة بقطع النقود المعدنية..

جبين أدهم معروق، بفعل المسافة التي سارها على قدميه في عز لهيب أغسطس، باحثا عن حذاء رخيص لسحر، كيف التصرف وما معه لا يكفي لشراء حذاء؟ تمزق حذاؤها القديم، وأزف موعد بدء الدراسة. أصابع قدميها تطل من جلد الحذاء. ظل طوال وقفته شارد البال، باحثا عن حل. وهذا عنتر المفتول العضلات يعد المتفرجين بتحويل الجنيه إلى خمسة، بلعبة من ألعابه السحرية. وجنيهات أدهم القليلة غير قادرة على شراء حذاء. يستطيع عنتر أن يحول كل جنيه إلى خمسة! يفيق أدهم من شروده، مغالطا هواجسه، فاللعبة لا تعدو حيلة من حيله، وليست أمرا واقعا يزيد به ما في جيبه إلى خمسة أضعاف.

ثوب سحر، بدا حائل اللون وسط مهرجان الأزياء المعروضة حوله. بدت سحر أفقر البنات، مع أن أباها يراها أحلاهن. لماذا تفكر يا أدهم في هذه الأمور المقلقة؟ وأنت تفطن لأمور كثيرة في حياتك، وفي حياة الآخرين. فأنت ساعي في مكتب حكومي، تؤدى عملك بإخلاص وتفان. عديد من السعاة يتفوقون عليك، فهم يتقنون الرياء والفهلوة، والتقرب لدى أصحاب النفوذ والسلطان. أما أنت فوسائلك متواضعة. وتؤدى عملك خير ما يكون الأداء، ثم تعود إلى بيتك، كل يوم، قانعا راضيا.

يغطي عنتر الكوب بمنديل. ويؤدى بعض الحركات، بما معناه أنه يهم بتحويل الجنيه إلى خمسة جنيهات. ثم يخاطب الجمهور:

– يا حضرات، لنضع الكوب على الأرض، ولنؤجل اللعبة قليلا. سأريكم شيئا آخر، وانسوا حكاية الجنيهات الخمسة.

يكاد يبتسم أدهم. هل في مقدوره نسيان حكاية الحذاء؟ أفي مقدور سحر مواصلة السير بحذائها القديم؟ وأني له ثمن حذاء جديد؟ كيف ينسى؟ كيف؟

يستطيع عنتر تأجيل لعبته، أو الضحك على متفرجيه. أما أدهم، فضغوط الحياة تطحنه، ولا شيء يحتمل التأجيل.

– ها كم كوب زجاج. انظروا جيدا يا حضرات. ما في يدى كوب زجاج حقيقي. امسكوا الكوب بأيديكم لتتأكدوا أنها من الزجاج.

يطوف عنتر بالكوب، وحين يتأكد من اقتناع المتفرجين، يكمل كلامه:

– هذه الكوب ياحضرات....

ويكرر عبارته بصوت عال مثيرا الانتباه، ثم يكمل:

– سآكلها...!

علامات استنكار ودهشة، بادية على وجوه المتفرجين.
تحدق سحر في جسم عنتر الذى لا يستره إلا سروال، وصـــدره مكشوف متباهيا بعضلاته، وجسمه الضخم. يستطرد:
– سآكل الكوب الزجاجية..هذه..سأمضغها..أمامكم..ثم أبلعها..لتمضغها معدتي!
ترتجف سحر. لأول مرة تلتفت إلى أبيها، تتمنى أن يقدم لها تفسيرا لهذا الكلام. ترنو إلى وجهه المعروق. في هذه المرة، يرنو أدهم إلى وجهها الجامد الملامح في صمت حذر، ويـــترك لخيالها تدبر ما ترى وتسمع.
يزعق عنتر بصوته الجهورى الأجش..
– ما الذى يضطرني لأكل الزجاج؟ أن أشـــيركم بـــهذه اللعبة القاسية، المؤلمة..إنني يا حضرات أقاسي وأتألم من أجل لقمة العيش..لقمة عيش شريفة..صلوا على النبي يا حضرات..
والتهبت الأكف بتصفيق حاد متواصل، وقد اشتعل الحماس فـــي نفوس المتفرجين.
تصفيق غير موحد الأداء....
يكسر جزءا من الكوب بأسنانه، ثم يتوالى الكسر قطعة قطعة، مبقيا كل القطع الزجاجية داخل تجويـــف فمـــه! يرمـــي الكوب السميكة، ثم يمضغ ما في فمه. يبدو على وجهـــه الألـــم والمعاناة. ترتجف سحر. أدهم واجم حائر في أمر عنتر. صورة منفرة مقززة، حاول أدهم غض الطرف. تذكر الجنيهات القليلة. اخرج المظروف من جيبه، وفتحه ليتأكد من عدم ضياع المبلغ، ثم أطبق يده عليه خشية السرقة.
تنظر سحر إلى أبيها، وفي عينيها دموع..تهمس لأبيها:
– لماذا يأكل الكوب؟
– كي نعطيه نقودا.
– يمكن يا أبي أن نساعده، ونمنعه من أكل الكوب.

ابتسم، وأجاب:
– لكن الناس يريدون أن يتفرجوا..
تبكي الصغيرة. جارها رجل مسن، يقترب هامسا في أذنيها:
– لا تخشي على عنتر..
يواصل عنتر تكسير الزجاج بأسنانه يهمس الرجل المسن في أذن أدهم:
– بيني وبينك، فيما يبدو أنه يغطي أسنانه بجزء معدني يصلح لتكسير الزجاج.
– لكنه سيبلعه، وتتولى معدته هضم الزجاج!
– تقصد تتلوى معدته.
اغتصب ضحكة، ثم قال في حسم:
– سنرى...
ينتهي عنتر من مضغ الزجاج، ثم يخبط زوره بكفه عدة مرات، ويبلع ريقه، رافعا يده علامة الانتهاء من وجبته الدسمة!! ويتناول كوب ماء، يشرب منه، تنهال الأكف بتصفيق حاد متواصل. وتنهمر عليه النقود في سخاء، دون أن يطلب. تابع أدهم هذا التشجيع المادى الملموس، لا سيما أن القطع الورقية تكاثرت، فزاد رصيده. أعطاه أحد الواقفين جنيها كاملا..يا بختك يا عنتر. تستطيع شراء حذاء لا بنتك. ألك بنت؟..أوه..أمتزوج أنت؟ أأنجبت؟ أم أنك ما زلت في حداثة سنك، تفضل العزوبة على الزواج؟ وربما تبدد ما تجمعه من مال. لو لك بنت كسحر، فستدخر ما تجمع من أجلها.
غرق أدهم في تساؤلاته الكثيرة. المظروف في يده. أنامله تضغط عليه في حرص بالغ.
أخرجت سحر شلنا، وهو الشلن الوحيد في جيبها، وهرعت إلى وسط الحلقة، لتعطيه لعنتر، يعلن عنتر لجمهوره:

– ياحضرات. لشلن هذه الصبية حـــلاوة. أنـــا أشكـــر الصبية، صفقوا لها يا حضرات.

ويدوى التصفيق طبقا لتعليمات عنتر! تبتسم سحر، تنظر لأبيها في زهو.

يبدو يا أدهم أن سحر نسيت أمر الحذاء الجديـــد، بعـــد إصرارها وعنادها. ولم تفلح جهودك لإقناعها بارجاء الشـــراء، حتى أول الشهر.

يمسك عنتر بكوب زجاجية أخرى، يكسر الكوب قطعـــا صغيرة، ويضعها في راحة يده، ثم يضغـــــط عليـــها براحتـــه الأخرى حتى تتحول القطع الزجاجيـــة الكبـــيرة، إلـــى رمـــل زجاجي، يسقطه من بين كفيه حبات صغـــيرة..الكـــل يصفـــق لعنتر..

لم يصدق أحد المتفرجين حيل عنتر، فيحضر له كوبـــا أخرى:

– ليطمئن قلبي..كرر اللعبة مستعملا هـــذه الكـــوب.إذا نجحت، سأعطيك خمسة جنيهات كاملة.

تهمس سحر في أذن أبيها:

– قد يجرح الزجاج يده.

– عنتر يتقن ألعابه. هذا مؤكد يا سحر.

– ربما يكون زجاج هذه الكوب من نوع آخر.

يبتسم أدهم. بينا سحر ترتجف. يخيفها الدم الأحمر، حتى لو نتج عن خدش بسيط.

يتناول الكوب. يكسره قطعا صغيرة. يكرر لعبته. يزداد التصفيق. يأخذ الخمسة جنيهات ثمنا لنجاحه.

تعاود أدهم الأحزان. تتراكم همومه. تبدو آثارها فـــي تقطيبـــة الجبين، وجمود قسمات الوجه.

تتهال عليك الجنيهات يا عنتر. لست أحســـدك، وإنمــا أرثي لحالي. كيف تأكل الزجاج، وتكسب المال الوفير؟ وحـــذاء سحر، مشكلة المشاكل. لا أريد أن تشعر ابنتي أنها أقل شأنا من زميلاتها. أنا يا عنتر من نوع آخر من الناس، لا أطمــــع فـــي تصـــفيق الناس، ولا في تدفئة جيوبي بالمال. فقـــط أريـــد أن أزرع بسمة ما في وجهها.

يجمع النقود من المتفرجين، واعدا إياهم بلعبة جديـــدة. ينصرف أدهم وسحر، عائدين إلى البيت.

خطا بضع خطوات، ثم تذكر ان المظروف ليـــس فـــي يده، أو في جيوبه. لم يشأ ازعاج سحر. عاد من حيث أتى، آملا أن يعثر عليه. بينا إحساسه الداخلي يؤكد أنه سرق.

اكتأب لحاله. تفاقمت مشكلته. حتى الجنيـــهات القليلـــة ضاعت منه، لا تحزني ياسحر. هذه حال أبيك..حال لا تســـر. عليك أن تتحملي. هذا قدرك أن تكوني ابنتي. ليس ذنبك أننـــي أبوك. وإنما تشاء الأقدار أن تتحملي جزءا من قدرى التعس.

عاد إلى حيث كان واقفا، لاعنا في سره هذا العنـــترى الذى اضطره للوقوف. لم يعثر على المظروف.

تسأل سحر:

– هل سنتفرج على باقي الألعاب؟

– يحسن بنا أن ننصرف.

لم يقل شيئا لابنته. وتناهى إلى أذنــــه صـــوت عنـــتر الأجش:

– ياحضرات..خذوا بالكم من ألعابي، وخذوا بالكم مـــن جيوبكم..

وندت منه ابتسامة ساخرة. ولا يدرى هل يســـخر مـــن كلام عنتر، أم يسخر من نفسه؟ ومضى لحال سبيله، والهواجس المقلقة تمزق أعصابه..

صادف محل جواهر. تملى النظـــر فـــي المصوغـــات المعروضة..ثم تذكر شيئا..الدبلة التي في أصبعه. مضت عشر سنوات على زواجه. لماذا لا يرهنها؟ ابتلع المرارة التـــي فـــي حلقه، ونفذ ما جال بخاطره مكرها. وهرع إلى محل الأحذيـــة، طالبا حذاء أنيقا لسحر. يجرى ماء الحياة في عروقـــها، تتـــهلل أساريرها. وترتسم ابتسامة الارتياح على محياه.

لن أهزم يا عنتر، لن أقهر..ولست فـــي حاجـــة إلـــى التصفيق. وإنما يشوقني ابتسام الورد على ثغرها. ويا زوجتـــي الصابرة، إذا كانت الدبلة غالية، ففرحة سحر أغلى مليون مرة. وأعدك، أعدك أن أسترد الدبلة قريبا..قريبا جدا...

عندما اختفت عبير

شق صوتها صدر الليل..

– بنت تائهة يا أولاد الحلال.

جابت شوارع الحي وحواريه، دروبه وأزقته. رافقتها جارتها أم سعد،التي لفت الطرحة السوداء حول رأسها ورقبتها، سريعا، وهرولت في أثرها قائلة:

– غير ممكن أتركك لوحدك.

من فينة لأخرى، تنادى معها بصوتها القوى. ترتكن عائشة إلى حائط، تسند ظهرها. لا تتمالك نفسها. غير متصورة أن وحيدتها تختفي في غمضة عين! انشغلت في المطبخ تعد طعام العشاء قبل رجوع زوجها من المقهى. انسلت الصغيرة لتلعب مع الأولاد والبنات في الحارة، كما اعتادت كل يوم. لكنها اليوم لم ترجع كعادتها مع جارها محمود. اختفت الصغيرة. أما محمود فمنعه المرض من اللعب واعتكف مرغما بالبيت.

راحت تسأل الجيران وأصحاب المحلات الصغيرة، فلم تلق جوابا شافيا. زوجها، وأغضبها بزعيقه وتهليله. اتهمها بالغفلة وقلة الحيلة، وأنها لا تصلح أن تكون أما. غربت عن وجهه صائحة نائحة مولولة، بعد أن رجمت بكلماته الحجرية بألا تعود إلى البيت بدون عبير. وصمم على أن حياتها معه رهن بعودة الصغيرة.

وصفق الباب بشدة خلفها. ضعفت أمام غضبه ووعيده، فهرولت إلى الشارع تستصرخ الناس أن يبحثوا معها عن ابنتها. جرت أم سعد في أثرها، وهرع جارها الطيب الشيخ سيد ليجالس زوجها، ويقرر الإثنان إبلاغ أقسام الشرطة، والإعلان عن اختفائها في المسجد القريب، واستئجار سيارة تجوب المنطقة بمكير صوت، لعل وعسى..

– كبدي عليك ياعبير، أين أنت الآن؟

ناحت عائشة. تلوت ألما. ارتمت على الأرض إعياء. أسعفتها أم سعد، تحاول إفاقتها، وطلبت منها أن تتماسك. أطلت عجوز من نافذة ضيقة وقالت:

– ربنا يصبرك يا شابة. إن شاء الله تعود.

صوت عائشة، دامعة العينين، يترك أنينه في قلب كل من يسمعه. الساعة تجاوزت الحادية عشرة، دون جدوى. رق قلب أم، خرجت من بيتها تسأل:

– كم عمرها؟

– تسعة أعوام.

– كبدى!

وسارت معهما تنادى على البنت الضالة. ثم عادت إلى بيتها، واعدة بأن يبحث عنها زوجها بعد صلاة الفجر!

عادا بخفي حنين وقد انتصف عقربا الساعة. لم تقو عائشة على صعود الدرج فجلست عند اول درجة. أمسكت أم سعد بيدها..

– قومي أدخلي شقتك.

– غير ممكن.

– أبو عبير لا يرضيه أن تبيتي خارج البيت. للنهار عيون.

ثم تركتها وهرعت إلى حسين تستعطفه. لكنه كان جسادا فيما قال..

ولم تصدق أم سعد..

– المسكينة ستموت لأجل عبير. ارأف بحالها. وإن شاء الله ترجع عبير.

– عائشة انشغلت عن البنت حتى اختفت تماما من الحي. لو تنبهت عقب اختفائها، لكان البحث سهلا. عائشة لا تأخذ بالها..

– اعذرها. ساعة الغفلة..

ولم تجد حلا أفضل من أن تبيت معها الليلة. أنهضتها وهي في حالة إغماء. لم تبح لها بشيء. ولم تدر عائشة هل دخلت شقتها أم شقة أم سعد، وأضربت عن الشراب والأكل، وقضت ليلتها تبكي وتولول..

(٢)

قد يكون ظالما. لكن ماذا بوسعه أن يفعل وقد اختفت وحيدته؟ إنه الإهمال والتقصير من عائشة. قد يشاركها بعض الذنب. يلوم نفسه الآن، يعنفها، فجلوسه على المقهى كل مساء أبعده عن شئون البيت. ها هي عبير تختفي. ولقد أصر على ألا تبيت زوجته بالبيت. ولكن ماذا هو فاعل لو لم يعثر عليها؟ جن جنونه.إنه لا يتصور أن تضيع ابنته. أرهق نفسه طول الليل حتى الواحدة صباحا. لم يبق سوى سويعات وتطلع الشمس. أحرق أنفاس الليل بدخان التبغ. صوت بداخله، يحمله جزءا من المسئولية. لكن الأم لا بد أن تأخذ بالها. الطائر يحافظ على فراخه. القطة تخاف على صغارها، وتنقلب مخالبها إلى سلاح دام لكل من يمس الصغار بسوء. فما بال عائشة تبدو كالشارة لا تأخذ بالها من شيء؟ ذاك طبعها. وكثيرا ما ردد

رأيه فيها، ولكثرة ما قال، صار من نافلة القول الذى لا يلقى عندها أذنا صاغية.

يعود الصوت يؤنبه: أنت لم تحسن التصرف، وليس مبيتها عند الجيران بالأمر المقبول. وماذا لو لم تعثر على عبير؟ هل أنت جاد في تطليقها؟ توتر حاد، وحزن مقيم، إلى أن أغفت عيناه دقائق معدودات، سرعان ما أفاق بعدها إلى واقعه المرير.

عبير، طفلتهما المدللة، هل اختطفها أحد؟ هل ضلت الطريق؟ هل داهمتها سيارة في الشارع العمومي؟..أعوذ بالله..ارتعدت فرائصه ولم يتمالك نفسه. انصب كل تفكيره في ابنته. لم ينشغل كثيرا بحال عائشة. إنه يخشى أن تصاب البنت بمكروه، وأصر أن يتجه إلى المستشفيات عقب صلاة الفجر، ويسأل عن حالات الاستقبال..ربما..ابنته..واعتصر قلبه ألما وكمدا..

• (٣)

حين نزلت عبير إلى الحارة، لم تجد محمود. جلست إلى عتبة المنزل الحجرية، وشردت قليلا. هل ترجع إلى البيت، أم تذهب إلى بيت محمود وتنادى عليه؟ قالوا أنه مريض، ومنعه الطبيب من ترك السرير. كما أن أمها تردد على مسامعها أنها بنت، ويجب أن تساعد أمها. حين تبكي تسمح لها بالنزول ساعة ذهاب أبيها إلى المقهى، وكثيرا ما منعتها من الاختلاط بمحمود، مع أنه يعطيها الملبس والشيكولاتة. جدها لم تره من زمن. راودتها فكرة. أن تذهب إليه بمفردها. المشوار بعيد. لكنها كبرت وتعرف الطريق إلى بيت الجد. لا شك أنه سيغرقها بكميات كبيرة من الحلوى. سوف تملأ جيوبها وتعطي محمود. قادتها خطاها إلى الشارع الكبير المزدحم، الذى تسير

فيه السيارات الكبيرة. وقفت حيرى. كيف تعبر الطريق إلى الناحية المقابلة؟ تريثت طويلا، وهي تجول بعينيها يمنة ويسرة، وحين اطمأنت عبرت سريعا. الحمد لله. قد وصلت إلى الطوار دون مساعدة من أحد. مشت خطوات قليلة إلى أن وصلت إلى موقف سيارة الركوب. انتظرت حتى جاءت السيارة رقم (٨) التي تقلها إلى حيث يقطن الجد الحبيب. اندست بين الركاب فرحة لأول مشوار بعيد تقوم به. لذة المغامرة أسعدتها. لم ترتجف ولم تخف. لقد كبرت وبدأت حياة جديدة.

لماذا تقتصر على مشاوير المدرسة القصيرة؟ كانت تسير على قدميها مع صويحباتها. خمس دقائق فقط. أما الآن. فالمشوار لا يقدر عليه سوى الكبار، وهي كبيرة. كبرت أنا. صار عمري تسع سنوات. صرت أكبر. صرت أطول. صرت أحلى. حين انجح في الوصول إلى بيت جدي، ستفرح أمي وأبي. سيعتمدان علي في الذهاب والمجيء من غير خوف.

أتى المحصل وطلب منها ثمن التذكرة. لم تعمل حسابها وتأخذ نقودا. ماذا أفعل يا ربي؟ أطرقت في خوف. ردد المحصل على مسامعها:

– تذاكر يا عروسة.

– ليس معي نقود.

مد شيخ مسن يده بعشرة قروش، لكن المحصل ردها إليه وقال لعبير:

– اليوم مجانا، وبعد ذلك لازم تدفعي الأجرة.

فرحت وقالت:

– حاضر.

وضحك جمع من الركاب.

وثقت في قدرتها على الوصول. وفي آخر الخط نزلت مع الركاب، وسألت عن شارع (النهضة). مشت قليلا إلى أن

وصلت إلى بيت جدها رقم (١٦). صعدت الدرج المتآكل، وأمام باب الشقة وقفت تدق الجرس. دهش الجد العجوز لمجيء عبير وحدها.

– ألم تقولي لوالديك؟

أطرقت. فطن الجد أن عبير غامرت. وبقدر فرحته بها، حزن لأن أبويها لا يعلمان. واعتبر ذلك نذيرا. لابد أن ينبه ابنه وزوجته إلى خطر متوقع. يعرف عن حسين استهتاره وتغيبه عن البيت. ويعرف عن عائشة سهوها وعدم تركيزها في شيء مهم.

لم يستطع أن يعود بعبير ليلا، فعيناه لا تميزان المرئيات بدقة. أرجأ ذلك إلى الصباح. ومن ناحية أخرى سيكون درسا قاسيا لهما.

احتفى بالصغيرة. قدم لها الطعام والشراب، وأهداها قصصا لطيفة ولعبا جميلة.

وفي الصباح، توجه إلى بيت ابنه ومعه عبير، ولقن الزوجين الدرس القاسي. لم يتفوه كلاهما بكلمة واحدة. كانا حطام جسدين..احتملا التأنيب والتوبيخ.

ولما امتدت يد حسين لضرب ابنته، منعه أبوه قائلا:

– الأهم من الضرب أن ترعى عبير، وأن تكون قريبا منها.

ضحكت عبير حين قبلها جدو الحبيب قبلته الحانية. وقال لأبويها:

– البنت كبرت..ما شاء الله..أصبحت عروسا..

وملأ جيوبها بالملبس والشيكولاتة.

حمص.. وحلاوة

على مقعد خشبي بارد، جلست أنتظر القطـــار. مــددت ساقي. رحت أفكر في الإرث الذى كلفني مشقة السفر، لأعـــود خالي الوفاض. عشرة قراريط، مؤجرة لأحد أقاربي، الذى ينتفع بها ويزرعها، ويسوف في دفع الإيجار، ويمـــاطل..يدعـــى أن عائد الأرض طفيف. في هذه المرة، وعدني أن يدبر متـــأخرات الإيجار، في المدى القريب.

أفكر في بيعها، ولكن..من يشترى أرضا مؤجرة؟، وإذا بيعت، فما أبخس الثمن! حقا، زارع الأرض هو مالكها.

جلس إلى جوارى رجل يرتدى الجلباب. تودد إلي بلفافة دخان، ثم بحديث شيق. انصرفت لمحدثـــي، تاركـــاً همومـــي المزمنة. الرجل لطيف المعشر. أحسست أني أعرفه من زمـــن حبال مودة امتدت بيننا فى لحظات. تكلم عن أســـرته، وأولاده، وتجارته، وعن نفسه تكلم. ملأ الوقت، حتى وصول القطار، ولا يزال في جعبته المزيد من الأحاديث.

اندفعت نحو القطار. الزحام خانق. انحشرت.

تحرك القطار. تلفت حولي باحثا عن صاحبي. لابد أنه في مكان آخر، منحشر مثلي بين الكتل الآدمية.

بيدى لفافة حمص وحلاوة، من عند شيخ العرب، كمـــا طلبت زوجتي. احرص على اللفافة. لا تشغل بالك بإرث. فكـــر في مستقبل أسرتك وأولادك. نعم، الإرث ذكرى طيبة للمرحوم.

ولكن ما الحيلة؟ اصرف ذهنك عن حكاية الأرض. انظر إلى وجوه من حولك..وجوه مكافحة..ملامح مكفهرة، وأخرى كئيبة، وثالثة ضاحكة. أكاد أشم أنفاس عرق الحياة، في الهواء الخانق..بائعو المياه الغازية، والشاى، والفطائر، والحمص والحلاوة، يتناوبون الظهور والنداء..

يد فتاة تمسك بكتفي، قائلة:

– افسح لي سكة..

أزاحتني بيدها قليلا، بقدر المسافة التي يمكنها أن تمر عبرها. ثم تقف مسندة ظهرها إلى نافذة القطار. تطوع شاب بكرسيه لتجلس عليه. الفتاة ذات هيئة غريبة ملفتة للنظر. ترتدى ثوبا أزرق، فوقه معطف رجالي، رمادى اللون. الفتاة في مقتبل العمر. بقامتها انحناء غير ملحوظ. وجهها متناسق الملامح، خال من التجاعيد والعلامات المميزة. عيناها نجلاوان، والعينان هما لمسة الجمال في الوجه الصبيح.

أخرجت من جيب المعطف كيسا من السلوفان، رفيعا وطويلا، مملوءا بالحمص والحلاوة. حدقت في الكيس، متحسسة إياه، كأنها تتعرف على محتوياته. أخذته بين راحتي يديها، وأخذت تديره، كأنه ورقة مطوية، تعيد إحكام طياتها، أو أنها تزيد من استطالة الكيس.

في هذا الزحام، شغلتني الفتاة عمن حولي، مثلما شغلت هي بالكيس. حلت عقدته، وتناولت قطع الحلاوة، وألقت بها على حافة النافذة..ثم وضعت حمصا في كفها، والتهمته. هى في شغل شاغل، لا تعبأ بأحد. النظرات، نظرات الركاب، تتجه ناحيتها، ترقبها حينا، وتنشغل عنها حينا آخر. كلما فرغ الحمص الذى بكفها، تضع كمية أخرى، وظل فمها مشغولا على الدوام، حتى فرغ الكيس تماما. مازحها شاب قبالتها:

– لم تأكلي الحلاوة..

– خذها أنت..
ابتسم..قالت له:
– هذا الرجل..يحدق في..
التفت الشاب علي، وكذا الجالسون على المقعدين..ضاحكين..قال إليها الشاب:
– إنه معجب بك..
واتجه ناحيتي مازحا:
– تظنك تعاكسها..
الكل ابتسم. لا أدرى كيف راقبتني، وهي كلفة بكيس الحمص..
ترك الشاب مقعده، مغادرا القطار..جلست مكانه..أصبحت وجها لوجه أمامها.
أشارت إلى خصاص النافذة، وحركت أصابع يدها إلى أسفل، وقالت بلهجة آمرة:
– أغلق النافذة..
فأغلقتها..
هذه بداية مشجعة للتعرف عليها. لا شك أن تصرفاتها غريبة. توجهت بالحديث إلى شاب ريفي يقف بجوار الكرسي، وفي يده مسبحة يحرك حباتها، منصرفا عمن حوله. تطوعت بكرسيها ليجلس، قائلة:
– تعال..اجلس يا أخي.
امتنع الشاب، فعادت إلى كرسيها.
همس جارى في أذني:
– ليس أخاها..
فسألتها:
– أهو أخوك؟

صوبت نحوى نظرات حادة، ولم تجب. عدت أنظر إلى الشاب الواقف، فألفيته منصرفا عما يشغلنا. يبدو فعلا أنه ليست ثمة علاقة تربطه بها. حاولت التحدث معها ففشلت..قد انصرفت عني وعمن حولها..رفعت ياقة المعطف، ثم رفعت المعطف كله لتغطي رأسها، اتقاء للبرد..سهام البرد تنفذ من فتحات خفية، رغم غلق الخصاص والشباك الزجاجي.. وعقدت ذراعيها حول صدرها، وأسندت على الذراعين جبهتها، مخفية وجهها، وراحت في سبات طول الطريق.

قبيل النهاية، أفاقت..تفرست ملامحي كانها تتأكد أنني نفس الشخص الجالس قبالتها. أخرجت ورقة صغيرة من صدرها، بسطتها، وناولتها لي قائلة:

– سأذهب إليه..هذا عنوانه..لا أريد أن أتأخر..إنه أخي..

شككت فيما قالت..

– أحقا أخوك؟

فرمتني بنظرات استنكار.

من الجيب الداخلي للمعطف، أخرجت ورقة بعشرة جنيهات، كأنها ترد على اتهامي، وتتحدى شكوكي. قالت:

– سأعطيها له..

الشاب المتدين يقول:

– أنا من بلدتها. إنها ذاهبة لأخيها.

– هو يدرس في الجامعة؟

– نعم.

بعد صمت قليل، أضاف:

– مسكينة..تشقى وتتعب من أجله..وترعى أباها الكفيف..وأخاها الصغير..

شاقني حديثه. دعوته للجلوس. المقعد لثلاثة، بقليل من التصرف يمكنه أن يجلس..استطرد:

– تربي الدجاج وتبيعه مع البيض والجبن. تطوف ببضاعتها على بيوت القرية. تعرف أنت أن أهل القرى يربون الدجاج، لكنهم يشترون منها حبا في ارضائها، كما تمتد الأيدى الموسرة لإسعادها.

عادت الفتاة تخفي وجهها في صدرها. المعطف مرفوع فوق رأسها. شاقني أن أرنو إلى وجهها، وعينيها..أن أقرأ ما استعصى علي..لكنها ظلت مكومة أمامي، تصد لفحات البرد. يبدو أنها استغرقت في النوم. قد وصلنا إلى القاهرة، وبدأ الكل يغادر القطار. تأخرت قليلا، وأمسكت بكتفها أحاول إيقاظها....

– انهضي..وصلنا مصر.

فرفعت ناحيتي وجهها الصبيح.

أصررت على معاونتها..وأقود خطاها في زحام القاهرة، إلى السيارة التي تقصدها، وقد أعطيها نقودا. اتجهت إلى الباب، واثقا أنها تسير خلفي، فلم يتبق في العربة سوى نفر قليل.

تدافعت الأيدى والأكتاف، تتسابق للنزول. جاهدت كي أفسح طريقا..

وقفت على الرصيف، أرتب هندامي وأبحث عن الفتاة. أضناني البحث فلم أجدها. رنوت إلى قوافل الناس..زحام..زحام..وفتاتي مندسة في قلب الزحام.

سرت في طريقي للبيت. تنتظر زوجتي ما سأحكيه عن البلدة والإرث والإيجار...سأحكي لها حديثا آخر..عن الفتاة..سيكون الحديث حلوا شيقا، ونحن نأكل مع الأولاد حبات الحمص وأقراص الحلاوة!



رسوم دعاء

البنت الصغيرة كبرت. ما شاء الله. ولا قمر ١٤. دعاء كبرت. بدأت تلاغيني بلثغة محببة. وتقلد أخويها فيما يفعـــلان. عمرها خمس سنوات. تبتني عالما خاصا بها. فرحـــت كثـــيرا بممتلكاتها الخاصة، عندما دخلت مدرسة الحضانة منذ سنة. لها زى خاص، وحقيبة لكتبها الملونة وكراريسها الصغيرة.

شغلتني البنت الصغيرة بشئونها البسيطة، التـــي هـــي عالمها الأثير. ومن قبل أن تعرف الطريق إلى المدرسة، كانت تطلب مني ورقة ترسم فيها. ولم يكن عمرها يتعدى الســـنوات الثلاث. بدأت تمرن أناملها الرقيقة. كيف تمسك بالقلم، وترســـم دائرة، ومن حول الدائرة ترسم دوائر صغيرة، ثم ترسم خطـــا مائلا إلى أسفل، وتقبل نحوى تطلعني على الرسم..

– ماذا رسمت؟

– رسمت وردة..

– جميلة جدا.

تفرح دعاء، وترسم وردة ثانية، فثالثة..وامتلأت الورقة بعشرات الورود.

اشتريت لها كراسة رسم وعلبة ألوان وانبهرت بالألوان الزاهية، التي أعطت لرسومها شكلا بديعا. سألتني مدققة:

– هل توجد وردة خضراء؟

وعن اللون الأسود، سألت:

– هل يمكن تلوين وردة بهذا اللون؟

واسترجعت معها ألوان الورد الزاهية.

انشغلت بهوايتها. بدأت ترسم شجرة، ووجها لبنت صغيرة..كانت رأس البنت كبيرة جدا، والجسم مستطيل طويل ينتهي بأصابع القدمين، بدون الساقين..ونست الرقبة، وأصابع اليدين بوسط الجسم بدون ذراعين. ضحكت. وأبنت لدعاء ملاحظاتي، فضحكت هي الأخرى. كما رسمت النجوم، وملأت الصفحة بكاملها نجوما متراصة في خط متعرج إلى أسفل.

اهتممت كثيرا برسوم دعاء. حتى إذا نست هي، ذكرتها. ونادرا ما تنسى. وأحسست براحة لمجالستها، أتأمل الأنامل الصغيرة وهي تبدع خطوطا معبرة، وأستشف أفكارها وعالمها. وأصبح الجلوس مع دعاء، متعة خاصة تزيح عن كاهلي متاعب العمل، وتوتر الأعصاب، وشغل البيت، وقلت مشاحناتي مع زوجي جمال. كثيرا ما كنت أثور في وجهه لأتفه الأسباب، وحين أراجع نفسي أندم على ما لفظت به من كلمات نابية لا يصح التفوه بها. وكان جمال حليما صبورا. يواجهني بما قلت. ولا يثور مثلي. فأنزوى أراجع نفسي.. أخاصمها، ألومها، وأعنفها على ما بدر مني. وكما تثار المشاحنات فجأة، فإنها تهدأ سريعا. وتعود علاقتي بجمال أقوى من ذى قبل، وأحبه أكثر.

أشهد أن دعاء عالجت توترى. من يصدق؟ رسوم دعاء، أرجعتني إلى سن الطفولة، كنت أكبر منها بقليل..وكان رسم تقاطيع الوجه مشكلة كبيرة عندى. فحين أرسم بنتا، أكتشف أنها صلعاء، وحين أتدارك الخطأ، وأرسم خطوطا للشعر، أجد هذا الشعر قد طغى على قسمات الوجه. وحين أرسم الأنف والعينين والفم والأذنين لوجه ضاحك، إذا بالضحكة تنقلب في الرسم اكتئابا وجهامة. لهذا كرهت حصة الرسم، التي أكدت عجزى.

أما دعاء، فالبنت موهوبة. بدأت ترسم كل ما تشاهده في البيت مثل الكرسي والمصباح والزهرية وسماعة الهاتف وأشياء أخرى.

وذات مرة، رسمت وجها صغيرا لبنت، وملأت الصفحة بخطوط الشعر.

– ما هذا يا دعاء؟

ترد في ثقة:

– هذا وجه بنت..صغيرة يا ماما..وهذا شعرها.

ضحكت، ولم تضحك مثلي. قالت تقنعني:

– أصل شعر البنت طويل جدا. والورقة غير كافية للشعر الطويل. ماذا أفعل؟

ضحكت أكثر.

وأعجبتني ثقتها بنفسها. وبدأ زوجي هو الآخر، يوزع اهتماماته، التي كانت لمحمود ومصطفى، فخصص وقتا لمداعبة دعاء. ورسم لها كتكوتا يخرج من البيضة، ورسم قطة وكلبا. يرسم جمال أشكال الطيور والحيوانات بإتقان ووضوح.

أمسكت باللوحة، وقلت لدعاء:

– هذا كتكوت يصوصو..

– أنا لا أسمع صوته.

قلت موضحة:

– هذا رسم فقط..صورة..

نظرت إلي صامتة. قلت منزعجة:

– يعني التليفزيون يعرض بالصوت والصورة..وهذه صورة جميلة فقط.

تناول جمال اللوحة، ورسم كتكوتا آخر فاتحا فمه، وقال لها:

– حين يفتح الكتكوت فمه، فإنه يصوصو..

- إذن، ارسم قطة أخرى تقول مياو..
- حاضر..
ورسم القطة التي تقول مياو..
قالت دعاء مشيرة إلى فراغ باللوحة:
- وارسم هنا كلبا يقول: هاو..هاو..
- حاضر.
ورسم الكلب الذي يقول:هاو..هاو..
أعطاها اللوحة وطلب منها تلوينها
وتركناها تختار الألوان.
حاول محمود ومصطفى مشاركة أختهما في اختيار الألوان، ومساعدتها في التلوين، فصاحت تستنجد بي فطلبت منهما أن يتركاها وشأنها.
ولما ذهبت إلى مدرسة الحضانة، تعبنا معها في اليوم الأول. بكت لما تركتها حتى الثانية عشرة ظهرا. لكنها اعتادت على ذلك بعد أيام قليلة. وأحبت مدرستها نهال. ولم تدم نهال معها، فقد مرضت، وأتت مدرسة أخرى اسمها علا، فطلبت مني أن أطلب لها (أبلة نهال)!.
- نهال مريضة يا حبيبتي، ولا تستطيع الحضور.
- أنا أحب أبلة نهال.
- الطبيب منعها من العمل. ينبغي أن تفهمي هذا.
- طيب أقعد في البيت.
- غير ممكن. قد كبرت يا دعاء. ويجب أن تذهبي كل يوم إلى المدرسة، مثل محمود ومصطفى.
ورضخت مجبرة وانبجست الدموع من عينيها بغير بكاء، واحمرت عيناها، فاحتضنتها وقلت أطيب خاطرها:
- أبلة علا تحبك أيضا.
- لكني أحب أبلة نهال.

من حين لآخر، أعالج توترها. لكنها عصية. ولم تنسجم مع (أبلة علا) أو مع زميلاتها. واضطررت أن أذهب بها يوما، وأعطيها اجازة في اليوم التالي.

ثم حدث تغيير مفاجيء، إذ وجدت دعاء تصـــر علـــى الذهاب إلى مدرستها. وتصارحنى بأنها أحبت (أبلة علا). كمـــا كاشفتني بأنها تعرفت على زميلها ثروت.

وأدركت السر في هذا التحول المفاجئ. أوه..ليس ســـرا كما قلت..فدعاء حكت كل شيء، وفسرت كلماتها كل ما أبحـــث له عن جواب.

ذات مرة، سألت علا التلاميذ:

– من منكم يرسم وردة؟

تصايح الصغار رافعين أصابعهم، ما عدا دعـــاء التـــي شخصت بعينيها إلى علا – وهذا التعبير من عندى لما أتخيلـــه يحدث من ابنتي في صمتها وانزوائها – ولـــم ترفـــع أصبعـــا. أشارت إليها علا وسألتها:

– هل تعرفين يا دعاء؟

فرحت دعاء. أومأت برأسها. نـــهضت عـــن كرســـيها وتقدمت إلى السبورة الخضراء، ورســـمت بـــأصبع الطبـــاشير الأحمر وردة كبيرة وجميلة، والكلمات أنقلها عن لســـان دعـــاء وهي تصف رسمها..ثم أضافت:

– وقالت أبلة علا: وردة جميلة..كلنا نصفق لدعاء.

وصفق الجميع.

صمتت دعاء وقد اشرق محياها بالبشر. ثم قالت:

– أنا أحببت أبلة علا.

وارتحت لهذا التحول.

ثم...حدث بعد ذلك ما أحزنني، إذ فوجئت بها ذات مساء، تفتح كراسة الرسم وتخطط بالقلم الرصاص خطوطا كثيرة بلا معنى، حتى ملأت الصفحة بسواد الرصاص.

سألتها:

– ما هذا؟

– هذا..رسم..

– ماذا ترسمين؟

قالت وهي تضحك:

– أرسم..شخبطة..

ولما أردت صرف انتباهها، فتحت حقيبة المدرسة، وتناولت كراساتها لأكتب لها حروف الهجاء، فوجدت (شخبطة) أخرى! سألتها وأنا حزينة:

– ما هذا؟

وانهلت عليها ضربا، فأسرع جمال يحول بيني وبينها. ثم انتحى بها جانبا، وأوضح لها الخطأ الذى وقعت فيه..فقالت وقد أمسكت عن البكاء:

– هذا رسم ثروت صاحبي.

– من ثروت هذا؟

أجبته:

– زميل يجلس بجوارها.

وقالت دعاء:

– لقد رسم في الكراسة، وقال لي: أنا أرسم لك شخبطة. فضحكت لرسمه، وقلت له: وأنا أيضا أرسم شخبطة.

وأطلعت أباها في الصفحة الأخرى على ما رسمته هي.

وامتلأت الكراسات كلها بمباراة بين ثروت ودعاء في تسويد الصفحات بخطوط عشوائية.

ولم تعد دعاء ترسم رسوما جميلة ذات معنى، كسابق عهدها. واكتفت بعمل واجب المدرسة، وما تطلبه منها. لم تعد ترسم من (بنات أفكارها)، وتتخيل مثلما كانت تفعل.

وفي يوم، انهمك محمود ومصطفى في رسم لوحة، كل في كراسته، وقضيا المساء في تلوينها. فأتت دعاء بكراستها، ومرنت يدها على الرسم. راقبتها من بعيد ولم أشأ التدخل. وطلب مني جمال أن أدع لها حرية الاختيار، ولا أفرض شيئا على البنت الصغيرة. فهي لم تزل في سن اللهو والمرح. وينبغي ألا ينتقل ما نحمله نحن الكبار من توتر إلى الصغار. فأطيعه وأنا مقتنعة. لكني أعقب:

– قدر ما أستطيع.

وأسرعت إلينا تطلعنا على الرسم! فلم أستطع التعرف على شيء، صحت في ضيق:

– ما هذا؟

بينما جمال يدقق في الرسم، ويقول مازحا:

– قد انحازت إلى الفن السيريالي!

والصغيرة لا تفهم بالطبع المقصود بكلمة (سيريالي). وتطوعت تفسر ما رسمت وتشير إلى كل جزء وتسميه.

– هذا بيت. وهذه شبابيكه وأبوابه. وهذه بنت تدخل البيت. وهذه وردة في الجنينة. وهذه شمس. وهذا هرم وبجانبه جمل!

– أجهدنا أنفسنا كي نتعرف على مارسمت، والرسم في هذه المرة ليس شخبطة، وإنما تداخلت الخطوط فيما بينها، ونجحنا بالكاد في التعرف على بعض الأشياء. وانتابني غيظ، فرميت الكراسة بعصبية. فقام جمال وانحنى يلتقطها في هدوء يحسد عليه، وقال لي:

– هذا فن سيريالي..حقيقي فن..

وابتسم. فأغاظتني ابتسامته.

ولم يكتف بذلك، وإنما جلس مضطجعا على مسند الكرسي، وطفق يلقي محاضرته،

– لو درست تاريخ الفن يا زوجتي العزيزة، تجدين الفنانين قد عبروا في البداية ببساطة وبراءة. ونزوعا إلى التجديد بدعوى العمق، لجأوا إلى الغموض والتقعر، وبرروا ذلك بعبارات أشد إلغازا، مثل الرؤيا الإبداعية، وإيقاع العصر، واللاانتماء، وأزمة الإنسان..وما إلى ذلك..إن تاريخ الفن يشبه تدرج النمو عند فنانتنا الصغيرة دعاء. بدأت برسم خطوط انسيابية معبرة. وبعدها رسمت صورا طبيعية لكل شيء تراه. ثم تطور فن الرسم عندها، إلى ما سمته شخبطة، متأثرة بأستاذها، آسف..أقصد زميلها ثروت. ثم رسمت خطوطا ملغزة ترى من خلالها أشياء تداخلت فيما بينهما...و...

لكزته دعاء ملحة في طلب علبة ألوان جديدة.

أفاق من محاضرته. واسترحت أنا من ثرثرته.

وإذا به يمتثل لطلبها، ويشترى علبة الألوان!

رشا.. وعلبة الألوان

اشتريت علبة الألوان، لتفرح بها رشا. أغراني الثلاثين لونا المتدرجة من اللون الفاتح إلى اللون الغـــامق إلـــى اللـــون القاتم. رشا مغرمة بالرسم والتلوين. ستفرح كثـيرا. نصحتنـــي زوجتي بأن أخبيء العلبة بعيدا عن ناظريها. ذلك أنـــها تلطـــخ أصابعها، ولا تستطيع بنت الأربع ســـنوات - هكــذا ادعــت زوجتي - أن تعي الرسم. ولم تعطني فرصة للرد على دعواها، دست علبة الألوان داخل حقيبة، ووضعت الحقيبة في ســـحارة الصوان العلوية. ولم تبن الصغيرة عـــن مشاعرهـــا، وظلـــت مطرقة وهي تراقب أمها، وتتبع عيناها علبة الألوان منذ دخلت بها إلى أن حبست عنها.

انشغلت زوجتي في المطبخ. وأتتني رشا بخطى حذرة. ووقفت بجانبي صامتة. داعبتها، قبلتها، وحكيت لها قصة لطيفة عن أرنب جائع، فطفق ينط ويقفز ويجرى، لكن رشـــا ذاهلـــة عني. صامتة. عجبت لصمتها. سألتها:

- هل أنت جائعة؟
- لا..
- فيم تفكرين؟
- لاشيء..لكن..علبة الألوان جميلة..
- حقا، هي علبة جميلة.
- وأمي حفظتها في الحقيبة..

- نعم..
- قالت أمي: أن العلبة لك أنت..
- نعم..
- هل تسمح لي أن أخذ لونا واحدا، عندما أرسم؟
- نعم، أسمح يا رشا.
- ليس الآن. عندما أرسم.
- موافق.

هكذا حاورتني رشا. بين الحين والحين تصمت، تفكر، تختار الكلمات، مثلما تختار الألوان التي تلون بها.

- يعني أنت ترسم بالألوان، وأنا أرسم بالألوان..
- لا مانع.

قالت في حيرة:

- لكنك لا ترسم أبدا يا أبي.
- لا وقت عندى.
- هل تحب الرسم؟
- رسمت كثيرا وأنا صغير.
- والآن؟
- مشاغلي كثيرة يا رشا.

ما زالت تحاورني. فطنت لحيرتها. إنها تريد علبة الألوان، تتودد إليّ كي آتي بها. تعمدت ألا أوضح لها ما فهمت. وأخذت أصغي لحديثها المتقطع، الذى تنطق كلماته بلثغة محببة، وبطء، قد تصمت مرة أو مرتين قبل أن تنهي كلامها. قالت:

- لكنك لن تمانع أن أرسم أنا بالألوان، واحفظ العلبة معك.
- ماذا تقصدين؟
- أبدا..احفظها معك، وأعطني اللون الذى أريد.
- حاضر يا رشا.

- يمكنك أن تلون بها أنت وقتما تحب. إنها علبتك.
ضحكت. صمتت وهي تفكر، ثم قالت:
- لكنك لا ترسم يا أبي. لم أرك ترسم أو تلوون. فلماذا اشتريت علبة الألوان؟
الصغيرة تستدرجني. آه منك يا رشا
- قد اشتريتها يا حبيبتي لنلون بها جميعا.
- فهمت. لتكن العلبة لنا نحن الإثنين.
- وهو كذلك.
ضحكت رشا. إنها حريصة على ألا تغضبني. آه منك يا رشا.
واصلت الحوار معي دون أن تزهق، وأنا مصغ إليها تماما:
- أنا أستعمل الألوان كثيرا، فهل يضايقك هذا؟
- إطلاقا..
- هي علبتنا نحن الإثنين. فهل تفضل أن نقسم الألوان بيننا، أنت النصف، وأنا النصف؟
- لا..الأفضل ألا نبعثر الألوان، حتى لا تضيع.
- طيب. هل تسمح لي أن آخذ العلبة معي؟ وتأخذ أنت أى لون تريد.
- موافق.
فرحت رشا. قالت:
- لكنك لا ترسم ولا تلون
قلت مستسلما:
- خذى العلبة يا رشا، ولا تتعبيني.
- شكرا يا أبي.
توقعت أن تنصرف بعد أن حققت غرضها. لكنها ظلت واقفة، صامتة، تفكر من جديد. قلت في حسم:
- ماذا تريدين؟
- أريد العلبة.

- ليس الآن.

أحضرت ورقة بسرعة، وقالت:

- أريد أن أرسم زهرة، وألونها..

أذعنت لطلبها، وأحضرت علبة الألوان. أخذتها وهـــي تتطاير فرحا. تركتني وهرعت إلى أمها في المطبخ، وســـمعتها تحدثها عما دار بيننا. فأقبلت زوجتي مسرعة، غاضبة، قـــالت محتدة:

- هل تطيع رشا؟ كيف نربيها إذن؟

- دعيها تفرح بالألوان.

قالت وهي متذمرة:

- أنا أربي، وأنت تفسد..

- لا يا عزيزتي..أنا أشترى، ورشا تلون..

اقتربت رشا من مقعدي، وأرتني الزهرة البديعة التي رســـمتها، ولونتها بألوان زاهية.رنوت إلى عيني رشـــا اللتيـــن لونتـــهما الفرحة الغامرة بألوان أحلى ألف مرة من كل الألوان.

الطفل والقطة

طفلي أحب القطة البيضاء التي تموء ليل نهار. لموائها صدى محبب في نفسه، يجعله يخف إليها سراعا، محاولا لمس شعرها الأبيض. يصر على أن أشاركه متعته، أن أخف مثله وألاطفها. أحيانا أطيعه، وأخرى أتكاسل في مكاني..وفي كل المرات، يشير إلى القطة من بعيد، قائلا بلثغة محببة:

– القطة..

مشيرا بأصبعه الصغير، ثم يهرع نحوها. أحيانا يهشها بيده المنمنمة، وأحيانا تتملكه رغبة في لمس شعرها، ثم يقبل نحوي، بعد أن ابتعدت قطته الصغيرة، مقرة بجرأته..يقبل نحوي فرحا..يكاد يتراقص في مشيته..ضاحكا، قائلا:

– بابا..القطة..

مشيرا إلى عتبة باب البيت، حيث كانت تقف. أقول له:

– مشت القطة.

يردد قولي:

– بابا..القطة..مشت..

بين كل كلمة والأخرى فترة صمت، ريثما يسعفه النطق بحروف الكلمة التالية.

يتصادف أن يسمع مواء قطة، وهو راقد في مخدعه ليلا. يوقظني أو يوقظ أمه. يشير جهة الباب قائلا:

– أبي..القطة..

ويظنها قطته البيضاء. يهم بترك الفراش، ليتجه ناحيـــة الباب. أحاول منعه واقناعه بالنوم. أحيانا يمتثل، وكثـــيرا مـــا يعرض عني، ويقضي وقتا طويلا بجوار البـــاب، كأنـــه علـــى موعد جميل مع قطته الحلوة.

وذات مرة...نهضت من نومي على صوتـــه. صـــراخ طفلي أقلقني. زوجتي قلقت هي الأخرى. هرعنا إليـــه، وكـــان الليل قد انتصف، فإذا به يقف لصيق الباب، ينصت لمواء القطة. ثم إذا به فزع، فيجرى مهرولا نحونا.

ما الذى أيقظه وجعله يغادر الفراش؟ لا شك أنه مـــواء القطة. فما الذى أفزعه إذن؟ سؤال حائر لم نفلح فـــي الإجابـــة عليه. طفلي أحب قطته البيضاء، فلم الفزع؟

وما تصورته، هو أن طفلي بعدما سمع مـــواء القطـــة، ترك فراشه متجها نحو الباب كعادته..وربما أحس بغريزة خفية أن المواء ليس لقطته الصديقة، ففزع وخاف.

زوجتي لم تقتنع بما ذهبت إليه. قالت لـــي أنـــه شـــاهد بالأمس قطة سوداء..ولعله خاف منها. قلت منزعجا:

– ربما أنت أخفته من القطة.

– لم يحدث إطلاقا. هي القطة السوداء. قطته بيضـــــاء كالنهار، وهذه سوداء كالليل.

– طفلنا لا يميز بين الأبيض والأسود.

– إنه يخاف من الظلام.

أخذته في حضنها، فطفق يردد:

– القطة..القطة..

علامات خوف ارتسمت خطوطها على وجهه الأبيـــض المستدير، وعلى شفتيه الصغيرتين. سكت المواء. فرحت. قلت لطفلي:

- القطة..مشت..ذهبت إلى أمها..ونامت في حضنها..
ردد ما التقطته ذاكرته من كلماتي:
- القطة..مشت..نامت..
استطردت:
- نعم..القطة نامت مع أمها..نينة..
أخذ يردد:
- نينة..القطة..نينة..
بدأت مخاوفه تتبدد، وسرعان ما استكن آمنا مطمئنا، ثم استغرقه النوم فأطبقت جفونه.

••••••

طفلي يتشبث بالأشياء التي يمسك بها، يعبث بمحتوياتها. وسدى تضيع محاولاتنا لتناول هذه الأشياء من بين قبضتيه. لعبه يفسدها ويحطمها..ثم تمتد يده لأشياء أخرى.

ذات مرة...أمسك بالمكواة، محاولا تقليدنا بتوصيل الكهرباء إليها. نسارع إليه، ننتزع المكواة بالقوة وسط صرخاته، ونخفيها عن ناظريه. وأطيب خاطره، وأعالج بكاءه، مدعيا أن المكواة لا بد أن تنام كالقطة. فيقول لي:
- تنام..نينة..قطة..
أومىء برأسي فيقتنع. لا شك أنه يتذكر قطته الحبيبة، فترتاح نفسه. وكلما استعملت المكواة، ثم أعيدها إلى مكانها المألوف، يذكرني هو بأن المكواة ستنام كالقطة.

وبدأ طفلي يزاول نشاطا من نوع جديد..
كلما صادف شيئا من محتويات البيت في غير مكانه، فإنه يعيده إلى المكان المعتاد، مدعيا أنه لابد لهذا الشيء أن ينام مثل قطته.

المقشة يعيدها إلى مكانها. العروسة الدمية يضعها في مكانها على النضد، ويغلق عينيها الزرقاوين. كرسيه الصغير يعيده إلى ركنه المعروف.

يعيد طفلي ترتيب ما تناثر من محتويات الشقة. كل الأشياء لابد أن تستقر في أماكنها، لتنام مثل قطته. وكثيرا ما يسألني، مشيرا ناحية الباب:

– القطة..القطة..

حين ترد على خاطره، ولا يسمع مواءها. كأنه يسألني عن سر اختفائها. ثم يجيب هو على تساؤله:

– القطة..مشت..نامت..نينة..القطة..

وباتت حكاية النوم، مهربا لنا، لتبرير اخفاء أى شيء عن ناظريه. وكلما لاحت القطة السوداء، يهرع إلينا ملتاعا، محتميا بصدرى أو بصدر أمه، فنسارع بطردها من أمام باب الشقة وغلق الباب، قائلين له:

– مشت القطة..إلى أمها..لتنام في حضنها..

وإذا ما لاحت قطته البيضاء، تبش أساريره، فيهرع إليها، ويهشها بيده الصغيرة، وقد يلمس الشعر الأبيض الناعم الجميل.

طفلي وقطعة البسكويت

طفلي الحبيب أحمد..يحبو..منقبا في كل ما يصادف من أشياء. أحيانا تجتذبه أشياء تافهة لا نحفل نحـــن بـــها، فتثـير اهتمامه. يقترب أحمد من العام الأول. وما من مرة أجلس معه، ألاطفه وألاعبه، حتى أنســى كبريــات الأحــداث، وعظــائم الأمور..وأحس أن ابتسامة طفل، تزيل الكثير من رواسب الحياة وشوائبها.

ما حدث، ذات مرة، من طفلي أحمــد، جعلنــي أســأل نفسي: أهي غريزة الاستحواذ والتملك تنمو في نفس الإنسان منذ طفولته؟ أم هو حب السيطرة يستهوي الانسان منذ الصغر؟

ما حدث كان جلسة ملاطفة قصدت بها إضحاك طفلي، لكنه لم يكف عن صراخه وصياحه، والتفوه باللفظ الوحيد الذي تعلمه وأتقنه:

– مم..مم..مم..

وهي تعني أنه جائع، ويريد طعاما. فهرعت أحضر له قطعة بسكويت، فأتى عليها، فأحضرت له الثانية، فطفق يقلبــها بين يديه، ويصدر صوتا غير مفهوم، ويبدو أنه ينــاجي قطعــة البسكويت أو يغازلها، ثم وجدته يمد يده بالقطعة ناحيــة فمــي، فرددت يده إلى فمه ليأكل، فأعادها ناحية فمي متضاحكا.

قلت لنفسي: يبدو أنه شاء أن يطعمني مثلما أطعمته. لا بأس. يجب أن أقبل دعوته، وأقضم قطعة صغيرة، مشاركة له، وحتى يشب على الكرم والإيثار. ففرح حين رآني ألوك البسكويت، مما شجعه على أن يمد يده مرة أخرى، فاقتطعت قطعة ثانية، وتكرر منه هذا عدة مرات، وفي كل مرة، أقبل دعوته، وأقتطع جزءا من قطعة البسكويت، حتى شارفت على الانتهاء، ولم يبق منها سوى جزء صغير جدا يضغط عليه بقبضة يده. وحين مد يده مرة أخيرة ناحية فمي، شئت أن أحتوي الجزء الصغير المتبقي بين أسناني..بخفة..وألوكها في فمي، بينا صغيري يبسط قبضته، فلا يجد في راحة يده أثرا لقطعة البسكويت، فهم بالبكاء، فأخذت أحرك فمي دلالة أن القطعة في فمي، لكنه بكى بصوت عال، حين تأكد أن يده خالية تماما حاولت إسكاته ففشلت. وحاول فتح فمي بأنامله، قاصدا إخراج قطعة البسكويت.

أحضرت قطعة ثانية، فرفضها وأصر على إخراج قطعة البسكويت من فمي. وازاء هذا..تظاهرت بأني أخرجها من فمي، وأعطيته القطعة الجديدة، فأخذها مني، وهدأ صياحه. خالت عليه الخدعة، وبدأ يأكل البسكويت دون أن ينظر ناحيتي. حاولت – من جديد – أن آخذ جزءا، فقاومني، وأبعدها عني، وقد أولاني ظهره!

منذ ذلك الحين، لا أستطيع أخذ شيء منه. فما من لعبة أو طعام، يتناوله بيده، حتى يصير من ممتلكاته الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد.

صدر للكاتب حسني سيد لبيب

- باقة حب: (دراسة أدبية) بالاشتراك – القاهرة ١٩٧٧
- حياة جديدة: (قصص)– (طباعة ماستر محدودة) – سلسلة (أصوات) بالشرقية ١٩٨١
- أحدثكم عن نفسي: (قصص) – اتحاد الكتاب العرب – دمشق ١٩٨٥
- طائرات ورقية: (قصص) المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة ١٩٩٢
- كلمات حب في الدفتر: (قصص) – اتحاد الكتاب العرب – دمشق ١٩٩٣ – ط١
- سبعون ألف آشوري: _(قصص مترجمة) – وليم سارويان– دار الصداقة للترجمة والنشر والتوزيع – حلب ١٩٩٤
- الخفاجي....شاعرا: (دراسة ادبية) – تقديم البشير بن سلامة – رابطة الأدب الحديث – القاهرة ١٩٩٧.
- كلمات حب في الدفتر: (قصص) – تقديم خليل أبو دياب – سلسلة (اصوات معاصرة) بالشرقية ١٩٩٧–ط٢
- دموع إيزيس: (رواية) – مركز الحضارة العربية – القاهرة ١٩٩٨
- ابن عمى ديكران : (قص مترجمة) ــ وليم سارويان ــ دار الصداقة للترجمة والنشر والتوزيع ــ حاب ١٩٩٤

المحتـــــوى